

الطرائف والملح في الأدب العربي

الدكتور محمد بن سعد الشويعر*

العرب كما يراهم بعض الباحثين، من أكثر أمم الأرض، اهتماما بالنوادر، وحبا لمجالس الأنس. يدل على ذلك كثرة ما جاء في آدابهم، وما يدور في مجالسهم، سواء قصدوا الفكاهة لذاتها، أو جاءت خارجة عما هو مألوف..

وبان هذا في أشعارهم من أيام الجاهلية، وتأليفاتهم بعد ما توسعت الدولة الإسلامية بالفتوحات، ومخالطة الأمم التي تم فتح بلادها، ودخولها في حظيرة الإسلام، ولذا نرى الاهتمام بالترجمة، بدأ بهذا النوع من الكتب عن الآخرين، وخاصة عند الفرس والهنود، ثم ما عند الرومان.. والأمم يتأثر بعضها ببعض دائما، كما هو تأثير الأفراد.

وما سوف نتعرض له/ ليس استقصاء لاتساع هذا الميدان، ولكنه إلمامة تعطي جانبا، لنوع من الأدب ترتاح إليه النفوس، ويفتح نافذة على المجتمع.. واهتمام العرب على اختلاف مستوياتهم بهذا النوع، في المجالس والمسامرات وفي خلوات الإنس ليلية المجتمع، والترويح عن النفوس، وما ينتابها من سأم وملل.

* دبلوم تربية من المركز الإقليمي في بيروت عام 1966 – 1967 م.

- دبلوم إحصاء جامعة القاهرة 1975 – 1976 م.

- دكتوراه من كلية اللغة العربية من الجامعة نفسها 1397 هـ.

- يعمل الآن مستشارا لسماحة مفتي المملكة، ورئيس هيئة تحرير مجلة البحوث الإسلامية، وعضو الهيئة الاستشارية لمجلة الدرعية.

السنة الثانية عشرة	الدرعية	رمضان - ذو الحجة 1430 هـ
العددان: السابع والثامن والأربعون		نوفمبر 2009 م - 2010 م
69		

فالنادرة المضحكة، والحركات الفكاهية هي ما جاءت خارجة عن المؤلف في حياة الناس، حتى ولو كان هذا الأمر في معرض جدي 100% ولم يكن الأمر المضحك مقصودا لذاته، من أجل الإمتاع والضحك.

هذا ما ناحية السبب.. أما المسبب: فإن العرب أمة اجتماعية، يحب أفرادها التآلف ويبحثون عما يؤصل دلالة رأي علماء الاجتماع قديما حديثا: "الإنسان مدني بطبعه".

ولما كان العرب يهتمون بمجالس الإنس، ويتسامرون في الليالي: على وهج نار الشتاء، وضوء القمر في الليالي النيرة، حيث ليالي الجاهلية، هي منتدياتهم وملتقى أخبارهم، وتذاكر أشعارهم وأيامهم، إذ فيها تهدأ النفوس، من عناء النهار وما فيه، وتعلو البسمات الشفاه، معبرة عن ذلك قسماات الوجوه.

فإن أول ما وصلنا عن الأدب العربي، الذي تخلله الطرفة، ويسري في معانيه البعد عن الجدية، وفي ألفاظه حب الابتسام للتسرية عن الهموم، كان مما نقل عن تلك المجالس البسيطة في تكوينها، وما قيل في تلك الليالي المقمرة، حيث يحلو السمر على مستوى الأسرة، وترتاح النفوس في تزجيه مجالس أفراد القبيلة، التي بدأت جذور مجالسها تمتد وتتوسع دائرتها، بعد أن تأصلت في الجاهلية، حسب ما وصل إلينا عن تدوين الأدب العربي.

فقد جمعت تلك المجالس رواية وتناقلا، ثروة أدبية، في صورة عن واقع الحياة الاجتماعية عند العرب. وخاصة في ذلك ما يتعلق بالنادرة، أو ما تستملحه النفس من الطرفة، وما يستعذب من دلالة القول، ويستملح من حضور البديهة وسرعة الجواب.

وهذه الأمور قد سارع لديهم على سجيته: أخذا وعطاء، دون تكلف أو تسلك في الأمر، يلمس المتابع، هذا في الأمثال، كما يبرز في الأشعار.

نظرة الإسلام إلى المزاح:

لقد كان للإسلام الذي هذب الطباع بتعاليمه، وغير النفوس بزواجه ونواحيه، دور كبير في صرف النفوس عن هذا الاتجاه، بتخفيف الرغبة فيه، وتيسير الأعمال نحو الجدية في القول، والاهتمام في العمل بما يتفق ما تعاليم هذه الدين، ثم محاسبة النفس عن كل كلمة تقال، أو نادرة تروى، مثلما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، عندما طلب من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يوصيه، فقد جاء في تلك الوصية النبوية قوله على الصلاة والسلام: ((كف عليك هذا)). وأخذ بلسانه. فقال معاذ رضي الله عنه: يا رسول الله أنحن مؤاخذون بما نقول؟ فأجابه قائلا: ((ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم))، وفي رواية على ((مناخرهم))¹.

ولقد بلغ الأمر ببعض الناس إلى التحاشي عن القول، خوفا من زلة اللسان ما دام جاء في القرآن الكريم: { مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }².

وقد سمعنا عن المرأة المتكلمة بالقرآن، كما هجر مجموعة كبيرة من الشعراء، قول الشاعر الجاد منه والهازل، كما هو عند ليبيد بن ربيعة العامري (000 - 41 هـ)، وتخرج آخرون عن روايته، امتثالاً لما جاء بشأن الشعراء في آخر سورة سميت باسمهم ((الشعراء))، واستعاضوا عن ذلك بتعلم القرآن الكريم وتلاوته وتدبر معانيه خوفا من عاقبة الوعيد: ((لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه، خير له من أن يمتلئ شعرا))³.

ومن ثم الانصراف لعلوم الشريعة الإسلامية: تعلما وتعلما، اللهم إلا ما يدور عند بعضهم، في فلك الدعوة الإسلامية والدفاع عن الدين وحماته، كما عمل شعراء الرسول: حسان وابن رواحة وكعب، الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع شعرهم، ويعرف صدقهم فيما يقولون، ويحثهم على مقارعة المشركين.

¹ من حديث رواه الترمذي برقم: 2619 في الإيمان، وانظر جامع الأصول لابن الأثير: 535/9.

² سورة ق، الآية: 18.

³ رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، وانظر جامع الأصول لابن الأثير 5: 165 - 167.

لكن بعد أن انقضى عهد الخلفاء الراشدين، وتحولت دار الخلافة إلى دمشق، وأصبحت ملكا عضوضا، ظهر الترف في مجالس الخلفاء والولاة، بعد أن كثر الداخلون في الإسلام، وبعضهم برقة في دينه، حيث خف الشعور المتمثل في إحساس الصفوة الأولى، الذين جالسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذوا من مدرسته، ولما مدح كعب رسول الله بقصيدة بدأها بقوله: بانت سعاد، أوقفه الرسول الكريم قائلا: ومن سعاد؟ فقال: زوجتي .. فأقرها ومضى في قصيدته.

فقد أحب أبناء ذلك المجتمع، العودة بالنفوس، لما جبلت عليه من الانطلاق عن القيود، وذلك بالعودة إلى الشعر افتخارا وتكسبا، مع الاهتمام بالنادرة والتظرف، ومع استحسان كل ما يسري عن القلوب ملحة ومفاكهة، وسواء جاء ذلك شعرا أو نثرا، لتوفر عوامل: الشباب والفراغ والجدة.

ثم لما وجدوا أذنا صاغية، وأفئدة متلهفة، تعهدوا ذلك بالنماء والزيادة، سواء بالقول والتنميق، أو بالرواية والحفظ، ومن ثم النشر، فقد سئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزحون؟ ويضحكون؟ قال: نعم، والإيمان ملء قلوبهم.

كما التمس الراغبون في هذه البضاعة لأنفسهم مستندا، مما لمسوه من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته.

فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال ذات مرة لامرأة كبيرة في السن طلبت منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بالجنة: ((لا تدخل الجنة عجوز))؟ فأهم المرأة ذلك الأمر، لكن الرسول الكريم، الذي نهي عن تخويف المسلم: أخبرها بالسر وهو يتسم: بأن الجنة أهلها شباب كلهم ولا يشيخون.

أما هو عليه الصلاة والسلام في مزاحه، فلا يقول إلا حقا، وإذا ضحك كان ضحكة تبسما، وذلك عندما يمر به موقف يعجبه، أو شيء خارج عن المألوف.. كما في قصة الرجل الذي جاء في نهار رمضان ليخبره صلى الله عليه وسلم ويسترشد منه عما يجب عليه تجاه عمله، عندما قال: يا رسول الله .. هلكت واهلكت؟! فقال له: وما ذلك؟ قال: وقعت أهلي في نهار رمضان.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. قال: هل تستطيع صيام شهرين متتابعين؟ قال: لا. فقال له صلى الله عليه وسلم: هل تجد إطعام ستين مسكينا؟ قال: لا. فسكت مليا، وفي هذا الأثناء جيء له صلى الله عليه وسلم بمكتل مملوء تمرًا هدية. (المكتل هو الزنبيل الكبير).

فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى الرجل وقال له: خذ هذا وتصدق به، فقال: يا رسول الله أعلى أفقر مني؟ فوالله ما بين لا بتيها أهل بيت أفقر من بيتي. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: خذه وتصدق به على أهل بيتك (لا بتيها : الحرّتين).

كما كان أحد الصحابة ويدعى: ((نعيمان بن عمرو الأنصاري)) مشهورا بكثرة المزاح، وعمل المقالب المضحكة بمراى ومسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم: لأن نفسه قد جبلت على ذلك، ولم ينكر عليه الرسول الكريم¹.

وقد عمل واحدا من مقالبه مع أمير المؤمنين عثمان بن عفان (47 ق هـ - 35 هـ) رضي الله عنه، وهذا أسلوب من الأعمال المضحكة، فقد روى ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب، في أسماء الأصحاب بسند موثق: أن مخزومة بن نوفل الزهري، كان شيخا كبيرا، بالمدينة أعمى، وكان قل بلغ مئة وخمس عشرة سنة، فقام يوما في المسجد، يريد أن يبول، فصاح به الناس، فأثاه نعيمان (41 - 000 هـ) فتنحى به ناحية المسجد، ثم قال: اجلس ههنا.

فأجلسه لكي يبول وتركه فبال، وصاح به الناس، فلما فرغ قال: من جاء بي ويحكم في هذا الموضع؟ قالوا: نعيمان. قال: فعل الله به وفعل، أما إن الله علي، أن ظفرت به أن أضربه بعصاي هذه ضربة تبلغ منه ما بلغت، وقصته مع الأعرابي الذي اشترى منه جرة غسل بدينار وأهداها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال له: خذ الثمن من ههنا، فلم قسم النبي الغسل بين نسائه، قال الأعرابي: أعطني يا رسول الله ثمن الغسل؟ فقال عليه السلام: هذه إحدى هنات نعيمان. وسأله لم فعلت قال: أردت أن أبرك يا

¹ تراجع نواتره للراغب وقصته في الإصابة، وترجمته في أسد الغابة، وفي الاستيعاب.

رسول الله ولم يكن عندي شيء. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطى الأعراي حقه.. ثم عودا على حكايته، مع عثمان بن عفان:

فمكث الأمر ما شاء الله، حتى نسي ذلك مخزومة، ثم أتاه نعيمان يوما وعثمان قائم يصلي في ناحية المسجد، وكان عثمان إذا صلى لم يلتفت، فقال له: هل لك في نعيمان؟ قال: نعم أين هو؟ دلي عليه.

فأتى به حتى أوقفه على عثمان، فقال: دونك هذا هو، فجمع مخزومة يديه بعصاه، فضرب عثمان فشجه، فقليل له: إنما ضربت أمير المؤمنين.. فسمعت بنو زهرة بذلك، فاجتمعوا فيه، فقال عثمان رضي الله عنه: دعوا نعيمان فقد شهد بدرا¹.

ومثل هذا كالنماذج التي سوف نوردها في نهاية هذا الحديث، وذلك من باب المتعة والاستشهاد، إذ نجد المشجعين لهذا المدخل الأدبي، قد نشطوا، وازدادوا اهتماما به، واتجه إليه الناس بعد ما اتسع وثقل ميزانه في مجالس الخلفاء الأمويين لإثابتهم عليه، ثم في العصر العباسي، ومجالس عليه القوم.

ولئن اتسع مجال النادرة، والملحة في النشر، فلقد نشط منه الشعر بصفة خاصة، حيث بدأ يشجع، ويعتم به الناس؛ لأنه أسهل في النقل والانتشار: تصنعا ونقل، وتحلية للمجالس وتدوينا.

ومع الاهتمام بهذا النوع، فقد أعطي مسميات كثيرة مثل: المزاح والنوادر، والملح والتظرف، كما سمي المهتمون به الظرفاء والندماء، مثلما سمي فيما أطلق على نوع من السؤال وأهل الاستجداء، مع الظرافة والنادرة: أصحاب الكدية.

فصارت مجالس عليية المجتمع، وما يدور فيها هي أمكن المدارس التي تهتم بهذا اللون، بل يصح أن تعتبرها المدرسة الأولى التي رعته، ووسعت مجاله، بعد أن صار الخلفاء والولاة، في العصر الأموي، وما

¹ الاستيعاب 4 : 1528، ولراغب الفائدة في مزاحات رسول الله، ومن اشتهر من الصحابة بالمزاح ومنهم نعيمان مراجعة نهاية الأرب للنويري 4: 1 - 6.

بعده يثييون عليه، ويشجعونه، لما فيه من ترويح عن النفس، وتخفيف من سأم الأعمال، والمشكلات الاجتماعية. يقول هشام بن عبد الملك - الخليفة الأموي - : بعد أن ذكر متع الحياة كلها، حتى ملها: فما وجدت شيئاً ألد من جليس تسقط بيني وبينه مؤنة التحفظ¹.

فقد وجدت هذه البضاعة سوقاً رائجة، وأصبحت مدخل رزق، يهتم به رواده، وينميها المجتمع، ثم بما يوقد جذوته من اهتمامات الخلفاء وذوي اليسار.

الشعر والفكاهة:

ومع هذا نلمس أن شعر الفكاهة لم يكن مستقلاً بذاته، ولا منفصلاً عن الحياة الجادة، وإن وجد منه شيء مستقل لذات الفكاهة والمداعبة، ومن ثم التسبب في الضحك، فإنما هو بنفس قصير أولاً، أو مستهجن في النفوس؛ لأنها ما زالت متشعبة بجذور مدرسة الإسلام الأولى: المتمثلة في الصدق بالقول والعمل، والحياة الجادة، مع الاهتمام النشط بالعلوم والعبادات. والإنصراف التام نحو التعليم والفتوح، والفروسية في محاولة لجذب البشر إلى دين الله، الذي أثار القلوب، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور. وهذا من المهمات في رسالة الإسلام، التي حملتها أمة محمد صلى الله عليه وسلم نحو البشرية جمعاء لتبليغ دين الله، في جميع الأصقاع، من المعمورة.

وعلى هذا فإن من يستقرئ شعر تلك الفترة يرى فيه تحولاً كبيراً، عن دور الشعر في عصر النبوة والخلفاء الراشدين. ومع التدرج في الانحلال من القيود الإسلامية، حول الشعر عامة، وما يمازجه من فكاهة ونوادر، نجد أن الشعر الفكاهي قد مر بفترات: بدأت بقصائد جادة في أغراض الشعر المعروفة، تداخلها أبيات ونوادر يعتبرها السامعون، والمتتبعون نادرة أو مجالاً للإضحاك، بدون توسع وإنما كالملمح في الطعام.

¹ نهاية الأرب للنويرية 4: 3.

فهي وإن كانت مقصودة لإثارة غضب من عني بها، كما روي: أن رجالا تراهنوا على إغضاب معن بن زائدة¹، وحددوا لأحدهم جعلاً يريجه، إن قدر على إغضابه، أو يخسره إن لم يغضب معن المشهور بالحلم، فجاء إليه وقد لبس جلد شاة مقلوبا، وفي منظر يثير الضحك من جانب، والاشتمزاز من جانب آخر، فدخل مجلس معن ولم يسلم، وتقدم ولم يستأذن فقال:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة وإذ نعلاك من جلد البعير

قال معن: أذكر ذلك ولا أنساه، قال الرجل:

فلست مسلما أبدا ودوما على معن المسمى بالأمر

قال معن: السلام لله. إن سلمت رددنا، وإن لم تسلم لا نعتب عليك، فقال:

فجد لي يا ابن ناقصة بشيء فأني قد عزمت على المسير

فأعطاه.. ثم زاده.. فلما كان من الرجل، إلا أن مدحه بيت، ثم أخبره القصة، وسببها فزاده في الصلة، حتى لا يخسر الجعل من ماله.

فمثل هذا الموقف مجال المفاكهة فيه خروجه عن المؤلف، في القول والفعل والهيئة، وهو ما يعرف في الآداب اليونانية باسم ((الكوميديا))، وهذه ظاهرة من سمات الضحك، أبرزها الشعر بطريقة هزلية، فصارت من دواعي الضحك الحقيقية.

ثم انفرج الأمر، بزاوية أوسع، بما صار بين جرير والفرزدق من نقائص، وبما صار بين شعراء العهد الأموي من ملاحظات ومنافرة، فامتألت تلك الأشعار بمثل هذه الظاهرة، التي تحمل الطرفة، والتفكه، فيما ينقله الناس عن الشعراء، مع ما في تلك الأشعار من هجاء مر، وعبارات قاسية تؤلم الأطراف

¹ توفي معن بن زائدة مقتولا عام 151 هـ. أخباره في وفيات الأعيان لابن خلكان 5: 244، والخطيب البغدادي في تاريخ

المتصارعة، وما فيها من مناقضات، كما يتأثر بها من يشايعهم، لكن البعيد عنهم هو الذي يستظرفها ويضحك بما فيها من دلالة، وفق المثل القائل: مصائب قوم عند قوم فوائد.

ولقد حرص الأمويون، أن يغدقوا على أهل المدينة، ليلهوهم بالأموال، إلى مجالس الطرف واللهو، وتتبع ما يقوله الشعراء، والتسلي بما يأتي على السنة المستظرفين، كأشعب وأمثاله من أبناء الموالي، الذين أخذوا الفكاهة صنعة يتكسبون بها، وتكاثر عددهم في المدينة المنورة ذلك الوقت.

فكانت هذه الفترة، هي الحقبة الزمنية التي بدأ يتكاثر فيها هذا اللون من الشعر، في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بصورة جلية، لتوفر: الشباب والفراغ والجدّة.

وقد برزت مجالس الإنس والطرب، وما يتبعها من دواعي المزاح والتظرف، الذي يجلب السرور للترويح عن النفوس، كما روي في قصة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، مع معاوية بن أبي سفيان رضي الله عن الجميع، فقد تنكر معاوية في إحدى الليالي، ليرى حال شباب المدينة، وماذا يعملون بعدما أغدقت عليهم الأموال، فمر ببيت عبد الله بن جعفر، في أول الليل، فإذا هو مجلس أنس وطرب ومفاكهة، مع نوادر تريح النفوس، ثم مر في آخر الليل، فإذا هو قائم يصلي يقرأ القرآن.. فقال معاوية: خلصوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، عسى الله أن يعفو عنهم.

وفي الصباح بعث لشباب الهاشميين بأموال وهدايا.

تلك المهاجاة، التي برزت في الشام بين شعراء البلاط الأموي الثلاثة أولاً: جرير والفرزدق والأخطل، - الذي استمر على نصرانيته -، وما فيها من منافرات جلبت للمتابعين الملحة ويسرت لهم أسلوباً يجلب الضحك قد فتحت الباب لميدان لقي سوقاً نافقة، حيث استمال إليه شعراء دخلوا معهم تقليداً وانجذاباً، مثل: نصيب والراعي النميري وغيرهما... حيث غذى هذا اللون مجالس الخلفاء والنقاد أمثال عبد الملك بن مروان (26 هـ - 86 هـ)، وسكينة بنت الحسين (... - 117 هـ)، وغيرهما ممن تكاثر في هذه الفترة.

كل هذا دليل على أن ما يعتز جادا عند فئة، تراه فئة ثالثة ممجوجا يجب التنزه عنه.

فالراعي النميري واسمه عبيد بن حصين - أبو جندل - (000 - 90 هـ)، عندما أراد أن يدخل نفسه، في معترك الهجاء مع فحول عصره، حيث كان يفضل الفرزدق (000 - 110 هـ)¹ على جرير (28 - 110 هـ)² فهجأهما في بيتين، هما إلى الإضحاك والتندر أكثر دلالة، عندما قال:

فحيا الإله أبا حزرة³ وأرغم أنفك يا أخطل

ووجه الفرزدق أتعس به ودق خياشيمه الجندل

وجرير مثلاً في هجائه يحاول الإنقاص من قدر الفرزدق، ولكن بروح مرحة، فهو يقول من قصيدة جاء فيها على وصف الفرس، وأقحم فيها عجز بيت، للإنقاص من قدر الفرزدق وتعييره، فيقول:

تري برصا يلوح بأسكتيها كعنفة الفرزدق حين شاباً⁴

ففي هذا استهزاء وسخرية بالمهجو، لكنه مستملح عن القارئ والسامع، بحيث أصبح نادرة يستسيغها من تذوقها، ذلك أن الفرزدق نفسه، قد زاد الموقف ملاحه، وقابلية للمفاكهة، عندما غطى عنفقه بيده، وهو يتسم بعدما سمع الشطر الأول، وكأنه بذلك يخبر عما يجول في خاطر جرير، وما يريد أن يقوله في الشطر الثاني.

¹ اسمه همام بن غالب.

² اسمه غياث بن غوث من بني ثعلبة. نشأ على الديانة النصرانية.

³ أبا حزرة هي كنية الشاعر جرير، قيل إن حزرة هي بنته وقيل غير ذلك.

⁴ العنفة: شعيرات تحت الشفة السفلى وفوق الذقن.

فمثل هذه الظاهرة بارزة لدى هذين الشاعرين في نقائضهما، التي اهتم بجمعها النقاد، ويتذوقها الأدباء جودة وسماعاً ومطابقة، والتي يدرك منها المتتبع، عن استقراء كل واحد منهما ما يجول في ذهن الآخر، وما يريد أن يقوله في رده على خصمه..

وهذا النوع يستحق دراسة تحليلية مستقلة.. وإن كانت الجلسات الأدبية النقدية ذلك الوقت، كما في مجالس: ((عائشة بنت طلحة (101-000 هـ)، وسكينة بنت الحسين (117-000 هـ)¹، قد أعطته من التحكيم بما رضي به الشعراء أنفسهم.

والنادرة في هذا العصر — كما قلنا — ذات طابع جدي، وقد تكون غير مقصودة لذاتها كنادرة، لكن الموقف هو الذي حولها من حال إلى حال، وترويج المعجبين أيضاً في صرفها لما يرتاحون إليه.

فالسامع عندما استطاب الجرس، وقارنها بالموقف، فإنه تذوقها، وتحسس نكتها فحولها إلى نادرة تتفكه بها المجالس، وجادت في نظره، وذوق من حوله بعد التحشية، وتصوير الموقف طرفة مستساغة.

خذ مثلاً قول الشاعر جرير (110 - 000 هـ)، في مطلع قصيدة له: يمدح بها عبد الملك بن مروان، (26 - 86 هـ) وكان استهلاله بهذا البيت:

أتصحو أم فؤادك غير صاح عشيّة هم صحبك بالرواح

فقال له عبد الملك على الفور، بل فؤادك أنت يا ابن اللخناء، فقد ساءه هذا المطلع الذي لم يرق له، مع أنه لم يكن هو المقصود به، لكن خطأ الشاعر أوقعه في حرج؛ لأن براعة الاستهلال التي يحرص عليها الشعراء غابت عنه في هذا الموقف.

¹ من يقرأ نقد سكتة الأدبي والعلمي في مجالسها التي يغشاها كبار الشعراء، والمهتمون بأيام العرب ومجالسهم. ومعرفتها بما في الأشعار من مثالب، وكذا نقد عبد الملك بن مروان وغيره من خلفاء بني أمية، فإنه يجد النماذج البديعة للفكاهة المستنبطة.. ينظر في هذا الموشح للمريزاني، والإمتاع والمؤانسة للتوحيدي والعقد الفريد لابن عبد ربه وغيرهم.

أو قول أبي النجم العجلي (000 - 130 هـ)¹، في مجالس هشام بن عبد الملك (71 - 125 هـ)، عندما أمر الشعراء عنده بوصف الإبل، وإيرادها وإصدارها كأنه يراها وينظر إليها، وكان هشام أحول، فقد وصف أبو النجم في قصيدته أمام هشام، الشمس عند جنوحها للمغيب، بهيئة غير مناسبة للموقف، وهو قوله في أرجوزته التي تبلغ ((191)) مئة وواحدا وتسعين بيتا بقوله:

حتى إذا ما الشمس اجتلاها المجتلي بين سحابي شفق مهول

فهي على الأفق كعين الأحول صفواء، قد كادت ولما تفصل

فقد غضب هشام، حيث تبادر إلى ذهنه أنه يعرض به، وأمر بوجئ عنقه وإخراجه من مجلسه، ولم يعطه شيئا.. بل قيل إنه مات بعدها فقيرا. مع أنه شعر جيد كما أثبتته النقاد فيما بعد، ولم يقصد ما جال بخاطر هشام، وما ذلك إلا أن حساسية الموقف، جعلت هشاما يتوقع أن الشاعر يعرض به، أو أنه في المجلس من ينمي هذا الإحساس².

فمثل هذه الحالات، وهي كثيرة في عهد بني أمية، الذين لم تفسد ملكاتهم: لأن لديهم معرفة بالشعر، وأسرار اللغة لا تعتبر نادرة عند من ألقاها، ولم يتقصدها، ولا عند من ألقيت له، ولم يكن الموقف يستدعي الضحك أيضا، فهي مجلس السماع الأول، لما يتصف به من الوقار والمهابة.

إلا أن اهتمام الناس بتناقل ذلك، وحرصهم على تصيد النادرة والتفكه بها، والتعليق على الموقف بما يؤصله، كل هذا زاد المقالة تمكينا وترسيخا، وزاد تناقلها حتى جاء من يشبها في مجالس النادرة المضحكة، والظرافة التي يتفكه بها، من باب إزالة سأن النفوس، عندما بدأ تدوين ذلك.

ولا ننسى في هذا المجال، دور الرواة والحفاظ، وندماء المجالس، مهما كانت أغراضهم وأهدافهم، حيث يوردون الملحة باسم النادرة أو الطرفة، في مناسبة، مما جعلها بضاعة نافقة، تذاع وتنشر بين

¹ اسمه الفضل بن قدامة من بني بكر بن وائل وهو مشهور برجزة.

² ينظر في هذا كتاب: الطرائف الأدبية لعبد العزيز الميمني، ص 69.

الناس؛ لأنهم يتذوقون كل ما هو مستملح، ويهتمون بكل ما يجلو صدأ القلوب، بقص إدخال السرور على النفوس، ومن ثم يتناقل من حولهم ذلك؛ ليأتي من يتصنع الأشياء التي تعجب الناس، كما يعمل التاجر في تسويقه لما بين يديه من بضاعة، حتى تندرج عند الآخرين.

مدرسة الفكاهة:

لئن كان هذا النوع محبباً إلى النفوس، وتنفق بضاعته في المجتمعات، إلا أنه لم تتسع دائرته إلا في العهد الأموي؛ لأن الوضع الاجتماعي، والرخاء المالي، كان لهما دور، يحرك ذلك: شباب و فراغ وجده. فكانت السوق تروج بهذه البضاعة، التي ازداد عدد العارضين لها، مع وجود الطلب، فراجت الفكاهة، ودواعي الإضحاك وما يدخل السرور، مع وجود من يتلقطون كل شيء مستظرف، ويبحثون عما يدخل السرور ويخفف تبعات الحياة الجادة.

وقد توافر على انتشار هذا اللون عدة عوامل منها:

- الاهتمام من الخلفاء: إطاء واستحساناً.. ثم الإغراق عطاء على من يحسن العرض، وترتاح له الأفتدة.
- التقليد من العامة، والطبقة الأعلى من المجتمع: حبا في التسرية عن النفوس والمشاركة في هذا المجال.
- توفر عاملين: القاعدة الأساسية التي تروج هذه البضاعة، ووجود المجتمع الذي يتقبل ويتذوق.
- الرواة الذين يحفظون ويسجلون.. وأصحاب الملكة الذين يزيدون الأمر: تحسينا وإبداعا، وإبرازه في قالب يتلاءم مع رغبات من يتلقف هذا الأمر.
- وقد نشأ عن هذه البداية، التي حركت الجذور السابقة في آخر العصر الأموي، مدرسة جديدة متخصصة في أدب: الظرافة والمخارفة، وتحيأ أشخاص احترفوا هذا النوع من الأدب، الذي لقي آذانا صاغية، وأفتدة متعطشة.. فبرزت أوائل التأليف في ذلك.

فروي لهؤلاء في هذا الميدان الشيء الكثير، بحيث طغى على إنتاجهم الجاد، وأصبحوا لا يكادون يعرفون إلا بذلك النوع من الشعر: أمثال سعيد بن حميد، وأبي فرعون الشاشي والحمدوني، وأبي الشمقمق الذي يقول:

ولقد كنت في عصبة من قريش يشتهون المديح بالبحان

وكما قلنا لعل أول من هيا الجو المناسب لذلك، ودفع الشعراء والرواة إليه، هم الولاة والخلفاء الأوائل، وأصحاب اليسار، في العهد الأموي حيث أغدقت الأموال على أهل المدينة، ليصرفوهم عما هو أكبر، فنشأ الترف والغناء، والاهتمام بالمجالس، التي أفسدت نفوس بعض البشر، وغيّرت بيئة المدينة الصالحة، بجذور الصفوة الأولى، من هذه الأمة، وتلاميذ المدرسة المحمدية، بحيث صح في المجتمع المدني، بروز قول الشاعر:

إن الشباب والفراغ والجدّة مفسدة للمرء أي مفسدة

فقد كانت مجالس كثير من البيوتات الغنية في المدينة، وبيوتات الخلفاء والأمراء في دمشق، والولاة في سائر الديار، تهتم بالنادرة: شعرا كانت أو نثرا، من ناحية اللغة والدلالة، وما تشيعه من جو قد يضحك، وتنمي ذلك بما تثيب عليه، وتستوضح عنه، ثم التشهير والمتابعة بالقادرين على ذلك النوع.. فكانت الأيدي تتخطفهم، والمجالس لا تحلو إلا مع حضورهم، بما يشيعونه فيها من بهجة، وما يحركون من الإنس والمظارفة.

النوادر المضحكة في العصر العباسي:

لئن كانت الرغبة لهذا النوع في مجالس الإنس والسمر، في العهد الأموي، حيث زاد الراغبون فيه: عددا ووصفا، إلا أنه لم يأخذ طابع التدوين والتخصص، إلا في العصر العباسي حيث اتسعت فيه دائرة القاعدة أفقيا، مما أتاح لها أن تكبر في العصر العباسي الأول (132 - 232 هـ)، حيث بلغت الدولة،

قمة مجدها: ثروة وترفا، وحضارة وسيادة، واهتم الخلفاء بالعلم والأدب، فأخذت الفكاهة في الأدب العربي شكلا جديدا، وزادها المؤلفون والمهتمون: ارتفاعا رأسيا، وتمكينا وترسيخا أفقيا.

فبدأ التأليف في هذا النوع من أجزاء الأدب؛ لأن ميدان الأدب حسب التعريف الشامل به: ((بأنه الأخذ من كل فن بطرف)). ثم إن المجتمع مع اتساع الفتوحات، قد دخله نسبة كبيرة من الموالي، ومن أبناء المغلوبة، أو ما سمي فيما بعد بـ ((الشعوبية والشعوبيين)).

وهؤلاء منهم من دينه هش، وعقيدته غير متمكنة، بل لديهم جذور عاشوا عليها، هم وآباؤهم من قبل، من حيث التسامح في الأقوال والأفعال، والتبذل في مجالس الطرب، واللهو في مجالسهم السابقة، وذلك لعدم وجود حاجز ديني يردعهم، أو خلفية عقدية تذكر بالجزاء والعقاب، أو الأجر والثواب، مما يدعوهم لوزن الأمور بميزان هذه المقاييس، حيث يجب عليهم أن يراقبوا تصرفات النفوس، ويحافظوا على فلتات الألسن، سواء كان ذلك في قولهم: شعرا أو نثرا، أو في الكتابة والمحادثة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن جذور آداب أمهم، وما يدور في مجالس أنسهم، يشدهم إلى هذا المنحى، والنفوس البشرية تتفاعل مع الجذور، وتعتبرها أسسا تبنى عليها في كل أمر تسير فيه.

ولما كانت العلوم قد تكاثرت، واتسعت الترجمة من تلك الأمم، أكثر مما حصل في العصر الأموي، فإن القائمين على نشرها هم غالبيتهم من أبناء تلك الأمم، المتشبعين بخلفيات تلك العلوم، التي بدأت تدخل الميدان الثقافي، الإسلامي بدءا بآخر العهد الأموي - كما مر بنا - ولكن بمستوى أقل مما عليه الحال في هذا العهد الأول، من عهود الدولة العباسية، علاوة على ما في نفوس هؤلاء من خلفيات اجتماعية، عاشت عليها أمهم، وتشبعت بها قلوبهم.

هذا إلى جانب أن الرقابة في الدولة العباسية قد خفت، وكثر من أبناء تلك الأمم المتنفدون في أعمال الدولة، وانفتح الباب على سائر فنون المعرفة.. وخاصة أن المأمون قد تحمس لإيجاد دار الحكمة: لترجمة المعارف المختلفة، فصار أبرز العاملين فيها من أبناء تلك الديار المغلوبة أيضا.

فدخلت علوم ذات تأثير بعيد المدى، في إضعاف الوازع الديني في النفوس، بعد ما خفت الرقابة، ومن ثم تشنت دولة الإسلام، وبدأ تقسيمها على مبدئهم: فرق تسد.

فكانت مجالس الإنس، وما يتبعها من أمور يدخل بعضها في هذا الباب، تؤدي دورا مزدوجا، كسلاح ذي حدين، ولا نقول: إن باب المفاكهة، والرغبة في التسرية عن النفوس، بالبحث عن الأمر المضحك، من ذلك الباب الذي اتسع على مصراعيه، ولكنه مدخل أفسح المجال إلى التساهل في القول، والتندر بكلمات، واستحسان أفعال، تعتبر من المجون والأمور المنكرة.. في التشريع الإسلامي؛ لأن العقلاء والعلماء، يأنفون منها، في مظهرها وفيما تجر إليه، فبرزت الزندقة، وأقام المهدي العباس حربا عليها، وقد يكون وراء ذلك أثر سياسي، ودخلت المجون والسخف، فيما ألف من الكتب كالعقد الفريد لابن عبد ربه، ومحاضرات الأدباء للأصفهاني، والعناية بمجالس الطرب كالأغاني وغيرها.

شيء آخر جد في هذا العصر، فإن مجالس الشراب التي يحرمها الإسلام، استدعت التبذل في هذا النوع من الأدب، وهذا بدوره استدعى البحث عمّن لديه باع طويل فيه، ومن ذلك كثر الاهتمام بتجميع النوادر، وما يقال في تلك المجالس المهيأة للمنادمات، وما يصلح لها.

وإذا كان قد قيل: بأن من كثر كلامه كثر سقطه، فإن أكثر هؤلاء المتحرفين لهذا النوع من الأدب، وهم عادة من ذوي الثقافة المتوسطة، وشعرهم ليس بالجيد، ولا بالمنزلة المرضية، حتى يطالبوا بالمحافظة عليه: رصانة ومكانة.. فإننا نراهم ينزلون إلى مستويات هابطة في القول، وبعضهم يفتعل المواقف التي تستجلب الضحك، وترضى نزعة عند الراغبين في هذا اللون.

وهؤلاء قد أصبح لهم مجالس يتذكرون فيها القول، ويتزايدون الكلام: نثرا أو شعرا، وغالبا نراهم من أرباب الحرف: من خباز وصانع، ونجار وطاه وغير ذلك من المهن، وبعضهم عاطل عن العمل.

وبالرغم من أن غالبية المحارفين - كما سماهم ابن عبد ربه (236 - 328 هـ)، في كتابه العقد الفريد - قد عاشوا عيشة الفقر وأضناهم العوز مثل: أبو الشمقمق (112 - 200 هـ)، والخبزري وأبو الرمقمق والجماز، والحيص بيص. وغيرهم.

رمضان - ذو الحجة 1430 هـ

السنة الثانية عشرة

الدرعية

إلا أن خفة الظل، والاقتراب من بيوت الخلفاء، رفع من مستوى البعض الآخر: كأبي دلامة¹ (000 - 161 هـ)، وسلم الخاسر (000 - 186 هـ)²، ومطيع بن إياس (000 - 166 هـ)، وغيرهم من أصحاب هذه المدرسة، مما دفع بكثير من شعراء ذلك العصر، كبشار بن برد (95 - 167 هـ)³ وأبي نواس (146 - 198 هـ)، وأبي تمام (188 - 231 هـ)⁴، إلى ولوج هذا الباب، وغيرهم كثير من شعراء هذا العصر. مثلما يظهر في قصيدة: بشار التي جعلها على لسان أتان، تتغزل في حمار سماه ((الشنفرائي))، على عكس المؤلف بأن يتغزل المذكر في الأنثى، وفي هذه القصيدة المضحكة، وصف لخد الحمال الأسيل، وثرعه الباسم⁵.

وإلى جانب ذلك يوجد فريق آخر، يتذوق النادرة الجادة، ويستحسن الكلمة ذات المغزى، ويستهجن السفاسف من الكلمات المبتذلة، والأفعال المستهجنة.

وقد قسم جرجي زيدان (1278 - 1360 هـ)، في كتابه: تاريخ الأدب العربي: شعراء العصر الأول العباسي، الذين تبرز عندهم هذه الظاهرة، التي اعتبرها فكاهة المجالس، ومضرب الأمثال إلى ثمانية أقسام هي:

- 1- الاستجداء.
- 2- التهتك والخلاعة.
- 3- الشعراء الموالي.

¹ اسمه زند بن الجون من الموالي من أهل الظرف والدعابة. كما عرف ذلك عنه بشعره.

² من الموالي رقيق العقيدة قيل سمي الخاسر؛ لأنه باع مصحفا واشترى بثمنه طنبورا اسمه سلم ابن عمرو بن حماد.

³ اسمه: الحسن بن هانئ من الموالي.

⁴ اسمه: حبيب بن أوس الطائي بالولاء.

⁵ يراجع من يريد لها ديوان بشار، ج: 4 قافية الميم، بتحقيق الشيخ الطاهر بن عاشور.

- 4- الشكوك في الدين والزندقة.
- 5- إطلاق حرية الأقلام الألسن.
- 6- منزلة الشعراء عند الخلفاء والأمراء.
- 7- نفوذ الشعراء وثروتهم.
- 8- تأثير الشعر في الهيئة الاجتماعية¹.

لأن الشعر أسهل في الحفظ وأقرب في نقل النادرة.

وقد وضع بإجمال كل نوع وأبرز ما قدموا، مستشهدا بنماذج مما قال: ومع ذلك فإن الشعر عندهم في هذا العصر فكاهة المجالس، وديوان العبر، ومختزن الحكمة، حتى كانوا لكثرة مخزونهم منه، يرمزون باسم الشاعر إلى بيت من أبياته، مشهور بمعنى، ويريدون ذلك المعنى، كما اتفق للرجل الجالس على جسر بغداد، والمرأة التي مرت به، قادمة من الرصافة، فاستقبلها بقوله: رحم الله علي ابن الجهم. فقالت له المرأة: رحم الله أبا العلاء المعري. وما وقفا بل سارا مشرقا ومغربا.

قال الراوي: فاتبعت المرأة، وقلت لها: والله إن لم تقولي ما أريد، وما أردت لأفضحك. قالت: أريد بعلي بن الجهم قوله:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت بأبي العلاء المعري قوله:

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

¹ انظر كتابه: تاريخ آداب اللغة العربية 2: 45 - 53.

وثم في ذلك نماذج كثيرة، عن شغفهم بالشعر في هذه الفترة بالذات، حتى أنهم يكتبونه على كل شيء، فكانت ترى الشعر - وخاصة منه ما يرمز للمفاكهة والتظرف - منقوشا أو مطرزا، أو مكتوبا أو منسوجا على الملابس، وتجد أمثال ذلك في: كتاب الموشى للمرزياني.

نتائج ذلك الشعور:

إذا كان يقال: بالضد تتميز الأشياء، فقد نشأ عن ذلك، ظواهر في مجال شعر الفكاهة في بحثهم عن المؤانسة، والتسرية عن السأم، وترويح القلوب، كما جاء في الأثر، روحوا عن أنفسكم ساعة وساعة، فإن النفوس إذا كلت ملت.

خاصة في أواخر العصر العباسي الأول، والعصر العباسي الثاني (232 - 334 هـ): حيث برز شعر متخصص سماه صاحب العقد الفريد: بشعر المحارفة والظرف، ونتج عن ذلك ظواهر مثل:

1- الكذب والمبالغة في اصطناع الملحة: وذلك لغاية في الإضحاك وإثارته عند الناس، بعدما رأوا أن سوق هذه البضاعة نافقة.

تجد هذه النوع يتجلى عند الراغب الأصبهاني (000 - 502 هـ) في كتابه: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء والتوحيدي (000 - 400 هـ)، في الإمتاع والمؤانسة، والجاحظ (163 - 255 هـ)، في كثير من كتبه: كالعميان والبرصان والعرجان، والبيان والتبيين والبخلاء.

2- وكان من شعراء هذا العصر ابن العلاف المتوفى عام 318 هـ، الذي اشتهر بقصيدة رثا بها ((هرا))، وهي من أحسن شعره التي اهتم بها الظرفاء ومطلعها:

يا هر فارقتنا ولم تعد وكنت عندي بمنزل الولد¹

ولعل ما رصد عند هؤلاء وغيرهم، وما يوجد في كتب المتفرقات، من تزويد الرواة والكتات، الذين يهتمهم الوصول إلى رغبات السامع، وكسب ثقته فيما تميل إليه أحاسيسه: لأن رغبات القراء والسامعين متباينة، فما يعجب هذا، لا تميل إليه نفس الآخر.

3- ولا أتصور أن كثيرا من نوادر هؤلاء الثلاثة، التي أوردوها في كتبهم، الموسومة بالطابع الفكاهي ذات أساس من الصحة، بدليل أنها تورد عندهم دون أن تنسب لقائل معين.

نماذج من الفكاهة:

خذ مثلا ما يرويه الجاحظ عن نفسه، عندما دخل سوق البصرة، فرأى امرأة تمشي ولها عجيزة كبيرة، تلفت النظر، فاقترب منها وقال: لله در من يتمتع بهذه المأكمة، إن لم يكن بها معظمة، فرفعت ثوبها وكشفت له عن عورتها، وقالت ليس راء كمن سمعا.

فالقارئ تثبت عدم صحة هذا الموقف؛ لأن الحياء جبلة في المرأة، ولئن كان بعض الناس يستسيغ الكلام عن موقف معين، فإن الفعل ومن المرأة، ومع رجل غريب، وفي وسط السوق بالبصرة، كلها قرائن تجعل التسليم بصحة الحكاية يتداعى. ولها نظائر في نوادره ونوادر غيره.

ولكن الحكاية تبقى طرفة يتذوقها فئة معينة، من الناس في مواقف يستسيغونها، ويجانس هذا قصة المرأة مع الجاحظ أيضا، والصائع عندما أخذت الجاحظ للصائع، وقالت له: مثل هذا... ثم ذهبت فبقى الجاحظ حائرا لا يدري السبب، وبعدها سأل الصائع؟ قال له: لقد طلبت من عمل خاتم لها، أنقش عليه صورة شيطان.

¹ انظر عنه وعن الخبزأرزي المتوفى عام 317 هـ، عن الأول: تاريخ بغداد للخطيب 7: 379، وشذرات الذهب 2: 277، وعن الثاني: تاريخ بغداد للخطيب 12: 296، ومعجم الأدباء لياقوت 19: 18.

الخبزأرزي: سمي بذلك؛ لأنه كان يطحن الرز، ثم يجيزه.

ولما قلت لها: ما سبق أن رأيت شيطانا قط.. ذهبت فجاءت بك وقالت كلمتها.

ولعل هذه الحكاية من باب التندر بقبح صورة الجاحظ، الذي طرد من بيت الخلافة العباسي، وتعليم أبناء الخليفة بسبب صورته التي نفر منها الصبيان.

وعند الراغب الأصبهاني (500 – 502 هـ)، تحت باب: المجون والسخف، في كتابه: محاضرات الأدباء نماذج شبيهة بذلك، أو ما يذكره التوحيدي في كتابه: الإمتاع والمؤانسة، عن أشياء تتعلق بالأخلاق والتحدث عن السوءات، وقد أوردا - ومن ينحو نحوهما - في هذا الموضوع، نواذر وأشعارا تحدد المنهج الذي اختطه أدباء ذلك العصر: شعرا ونثرا والناس في هذا النوع من الأدب، والتفرغ له على حالات:

- 1- منهم المؤلفون: وهؤلاء، جماع كخطاب الليل: يرصدون ما يدور في المجتمع، ويدونون ما يتناقله الناس، وما تلوكة الألسنة، من غير تمحيص ولا توثيق؛ لأن رغبتهم البحث عما يرضي أذواق طبقات معينة، من شرائح المجتمع.
- 2- ومنهم مما تميل إليه أذواق عليه المجتمع وتملاً فراغا في مجالسهم؛ لأنهم يبحثون عن هذا النوع من الأدب، المرغوب عندهم: والقاعدة أن كل مرغوب متبوع.
- 3- ويصح أن نعتبر الجاحظ في كتبه، متخصصا، حيث حاول بقدر الإمكان: أن يجمع في كل واحد من كتبه ما يتلاءم مع عنوانه، وإن كان الاسترسال والاستطراد يجذبانه أحيانا للابتعاد عن موضوعه الذي قصد: فيبتعد عما أراد، ليسلك طريقا غيره، من ناحية التجميع من كل فن بطرف، حسب معهود الناس في ذلك الوقت، عن المفهوم الحقيقة للأدب.. ومع ذلك فإن النادرة، والحكاية الظريفة لا تفارقه.. أما الشعر الذي يتعلق بهذا الموضوع، فيكثر عنده في كتابيه: البخلاء، والحيوان، حيث أورد نواذر في الحيوان: باسم الطيور والحيوانات وطبائعها، وفي البخلاء عن الإنسان.

4- والراغب الأصبهاني (000 - 502 هـ)، في كتابه: محاضرات الأدباء، الذي كان يجمع فيه بين الجدل والهزل، والموعظة والسخف، والاستقامة والمجون. وهو أربعة أجزاء في مجلدين كبيرين.

إلا أنه قد بوب كتابه هذا، وعنوان موضوعاته حسب كل مجال دخل فيه، فقد ابتدأ بالوعظ، ثم ما ورد في هذا من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ثم بمزاح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ينحدر إلى مستويات مختلفة.

وما يأتي به من أشعار تميل إلى المفاكهة، والتندر، نرى أغلبها غير معروف قائلها، مما يجعل الباحث يشكك في أصلها، ويرجح أنها من تزويدات الرواة والكتاب، فقد أورد أبياتا في ذم بعض النساء مثل:

وساق مخلحلة حمشة كساق الجرادة أو أحمش

وقال آخر:

لها وركا عنز وساقا نعامة وأسنان خنزير ومكشر أرنب

5- وأبو الفرج الأصفهاني (284 - 356 هـ)، في كتابه الموسوعي: الأغاني.. الذي سلك فيه منهجا يختلف عما أراده، بشأن كتابه هذا فيما يتعلق بالأغاني وأصواتها، ونغماتها وأصحابها: قولاً وأداءً، إلى إيراد نوادر وحكايات، كل ما يمر به من شعراء ومغنين، وما يستملحه من طرائفهم ومفاكهاتهم.

وقد يكون أصحاب هذه الملح، وتلك النوادر، ممن جاء ذكره عرضاً، ولا يمت إلى فكرة الأغاني وأصحابها، التي هدف الكتاب إليها بصلة.

وهذا المنهج نموذج من استطرادات الأدباء، التي ل يخل منها إنتاج واحد منهم، ذلك الوقت وما بعده بين مقل ومكشر.

- 6- والتوحيدي (000 - 400هـ) في كتابه: الإمتاع والمؤانسة، الذي برزت فيه سمات مؤلفه الشخصية، حيث وسمه بميسم عرف به، وهو رقة الدين، وعدم الاهتمام بالجذور الأصلية منه، مع عدم التورع عن ذكر نماذج هابطة من المجون والسخف، يقترب فيها من الأصبهاني في المنهج والاختيار، إلا أن هذا الأخير، أنظم في التبويب والموضوعية.
- 7- وابن قتيبة (212 - 276هـ) في كتابه: عيون الأخبار، الذي يمتاز بالسمت والوقار، وحسن اختيار الطرفة الرفيعة، والملحة التي تتقبلها الأسماع، وترتاح إليها الأفتدة.
- 8- وغير هؤلاء كثير، حيث سرى حب هذا النوع إلى مصر والمغرب، ثم الأندلس، فألف فيه كل من ابن عبد ربه (246 - 328هـ)، كتابه: العقد الفريد، الذي أتوقعه يستقي من مشرب واحد، هو والراغب الأصبهاني في: محاضرات الأدباء؛ لأن نواذرهما متقاربة، ومنهجهما متماثل، واختياراهما الشعرية متجانسة، إلا أن نواذرهما متقاربة، ومنهجهما متماثل، واختياراهما الشعرية متجانسة، إلا أن ابن عبد ربه أقدم في التأليف.
- 9- والحصري القيرواني (363 - 413هـ) في كتابة المتخصص: جمع الجواهر في الملح والنوادر، الذي ألفه مستفيدا فيه من كتابه الأول الذي اشتهر به: ((زهر الآداب))، وفي كتابه الثالث، الذي لا يزال مخطوطا: المصون في سر الهوى المكنون¹، الذي جاء فيه بنوادر العشاق وأشعارهم في هذا الميدان، بما فيهم الفقهاء، كفقهاء المدينة السبعة، والتي تمثل حال المفاكهة والتندر في المدينة، في عهد التابعين، وتابعيهم.. وهو أول ووسط عهد بني أمية.
- 10- وابن رشيق (000 - 456هـ) القيرواني: في كتابه: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. وهو كتاب أدبي نقدي، ولكنه استحسّن فيه، ما يمر من شعر ظريف، وما يعترض من نادرة يتفكه بها، مما يشيع البهجة والفرحة، في النفوس، فيثبته في مكانه، قاصدا منه إيراد الشاهد النقدي، وليس قاصدا النادرة من باب الإضحاك، والترويح عن النفوس.

¹ طبع طبعة رديئة في مصر وتحقيقه فيه نقص.

11- وفي آخر العهد الأندلس: في مملكة غرناطة، في عصر بني الأحمر، نرى علي بن عبد الرحمن بن هذيل المتوفى في آخر القرن الثامن الهجري، حيث ألف كتابه: مقالات الأدباء، ومناظرات النجباء الذي ألفه لخزانة: أمير المؤمنين محمد بن يوسف، أحد خلفاء الدولة النصرانية بالأندلس المعروفة بدولة بني الأحمر، المتوفى عام 793 هـ في غرناطة، وهي آخر معاقل العرب بالأندلس، نراه ينحو نحو مسيرة الأدباء في المشرق العربي، ويورد كثيرا من النوادر في كتابه هذا: قصصا ونادرة مستملحة: شعرا أو نثرا أو حكمة أو مثالا.

12- وشهاب الدين الأبهسي، في كتابه ذائع الصيت: المستطرف في كل فن مستظرف (790 - 85 هـ).

- ثم بما أورده الشيخ أحمد بن عرب شاه الحنفي في كتابه: فاكهة الخلفاء، ومفاكهة الظرفاء.

- وبما أورده بهاء الدين العاملي في كتابه: المخلاة والكشكول..

وغيرهم كثير من أدباء المشرق والمغرب العربيين .. إلا أنه يلاحظ على هذه الكتب، وغيرها كثير، ممن لم نذكره مما يماثلها في المنهج ما يلي:

1- أن الأخير ينقل من كتب من قبله.

2- أن ثقافة ونوادير العرب متماثلة مهما بعدت المسافة؛ لأن التواصل مستمر، حيث ينقل الأندلسي والمغربي، عن المؤلفين المشاركة في بغداد ودمشق، وغيرهما، والعكس مما برز في هذه المؤلفات.

3- أن ملوك وأمراء العرب، يهتمون بهذه الكتب في خزائنها، ويكلفون عليها، بل بعضها يؤلف لهم خصيصا.

4- أن المؤلفين والكتاب والندماء يتكسبون بهذه الكتب، والنوادر والحكايات، فيقدمونها لعلية المجتمع؛ لينالوا رفقهم، والحظوة عندهم.

رمضان - ذو الحجة 1430 هـ

السنة الثانية عشرة

الدرعية

5- أن مجالس الإنس، ومع توافر الغنى أو ما يجز إليه، من مجالس المظارفة والمنادمة، هذا وأمثاله زاد في الاهتمام بالكتب التي تنقل الأخبار والنوادر، والحكايات المسلية؛ لأن المجالس لا تحلو إلا بما يناسبها من هذا الفن، فكثر هذه الكتب لازدياد الطلب عليها دون غيرها.

ولما كان الخلفاء والولاة، والأثرياء يغدقون بسخاء على من يقدم لهم كتابا، أو يدبجه بأسمائهم، والناس على دين ملوكهم - كما يقال في المثل -، فإن هذا مما دفع الأدباء إلى التعرف إلى رغباتهم، وتلمس ما يثار في مجالسهم، وما يهتم به ندمائهم، الذين هم بمثابة الوسيلة الإعلامية في النشر والتبليغ. دفعهم ذلك إلى تلمس المرغوب، فساروا في ذلك؛ بحثا وتدوينا وزيادة: من شيء حصل أو لم يحصل، وهذا من البحث عما يروج البضاعة.

وهؤلاء النقلة عادة نراهم يقتبسون من بعض، ويقيدون نوادر بعض: شعرا أو نثرا، وفي الغالب يجدون البضاعة، لدى مجموعة من الشباب، لا عمل لهم يتجمعون فيما يشبه النوادي أو المقاهي حاليا، يتحدثون، ويتحاورون ويتندرون، وتلتقط كثير من المفاكهات من مجالسهم، كما يلاحظ في بعض المقاهي في الدول: كمقهى الفيشاوي بالقاهرة، في حي الحسين وغيره..

13- ونوع آخر من المؤلفين والعلماء، رأوا اتجاه الناس إلى نوع بدأت تتسع دائرته، فمالوا مع من مال إلى الاهتمام بالدراسة والتتبع، للضحك والمفاكهة، بعد أن تزايد الميول، ولم يحبوا أن يكونوا بمعزل عن المجتمع، وفي مقدمتهم بعض الفقهاء والعلماء، كما ذكر الحصري القيرواني، في كتابه: المصون في سر الهوى المكنون: بأن كثيرا من أفاضل العلماء والأشراف بالمدينة، يجرون من المحلة في مضمارها، لعلمهم بمقدارها، ويمشون في سبيلها، وليسوا من أجلها، منهم: عبيد الله بن عبد

الله بن عتبة بن مسعود، وكان من أئمة التابعين، وأحد فقهاء المدينة السبعة¹، وقيل له: أتقول الشعر على شرفك؟ فقال: لا بد للمصدر أن ينفث.

قال الزبير بن بكار (172 – 256 هـ): قدمت امرأة من هذيل المدينة، وكانت جميلة، ومعها ابن لها صغير، وهي أيم فخطبها الناس فأكثروا، فقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة فيها:

أحبك حبا لو علمت ببعضه لجدت ولم يصعب عليك شديد

وحبك يا أم الغلام متيمي شهيدي أبو بكر فذاك شهيد

ويعلم وجدي القاسم بن محمد وعروة ما ألفى بكم وسعيد

متى تسألني عما أقول فتخبري فللحب عندي طارق وتليد

فقال له سعيد بن المسيب: قد أمنت أن تسألنا، ولو سألتنا ما شهدنا لك بزور. فإذا كان الفقهاء قد انقادوا عن طواعية، وحب في المظارفة والمفاكهة، فلا يلام المؤلفون إذا تابعوا ورصدوا، ولا الخلفاء والأمراء والوجهاء، إذا لم يتواروا، فصاروا يبذلون بسخاء، ومتابعة مع التشجيع لهذا اللون من الأدب، الذي ارتاحت إليه نفوسهم، وجلب لها السرور والضحك، لما فيه من رفع الكلفة، والطرفة والمفاكهة، ثم لحق به المجون والتبذل، الذي دخل موضوعات تلك الكتب التي تحدثنا عنها، كنموذج فقط، وليس استقصاء.

فأصبح هذا ميدانا للتكسب من الشعراء والكتاب والحفاظ والندماء، مما دفع بكثير من ذوي القدرة والاهتمام، إلى صرف جهدهم في هذا الطريق للتبذير والرصد، والزيادة أحيانا من بنات أفكارهم، فجاءت كثير من الكتب التي وصلت إلينا تحمل الغث والسمين.

¹ فقهاء المدينة السبعة هم: عبيد الله هذا، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعروة بن الزبير بن العوام، وسعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وخارجة بن زيد بن ثابت رحمهم الله، وشهرتهم في العصر الأموي. تراجع أخبارهم في مخطوطة المصون في سر الهوى المكنون للحصري.

ولكل رواده ومشجعوه، كما أن للشعر في هذه الكتب، جانباً كبيراً، من حيث المشاركة، والحرص على تصيد ما يدعو للمفاكهة، أو التندر والتسرية عن النفوس، رغبة في الإضحاك والمباشطة، وقد تكون من هذا نافذة، تهم طبقة من الأمة: فقيرة أو مكبوتة، تنفس عما تجدد بهذا النوع.

مدخل العلماء:

إن اتساع دائرة هذا الفن، وشيوعه في المجتمع، بما فيه من غث وسمين، دفع بذوي الوقار من العلماء والفقهاء، إلى المشاركة بما فيه نفع وفائدة، مع الوقار في الطرح، أخذاً مما نسب لبعض الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((بأنه يمزج ولا يقول إلا حقاً)).

هذا الأمر حرك بعض العلماء المعروفين بالسمعة العلمية، والمكانة الاجتماعية، كابن الجوزي: (510 - 597 هـ)، رحمه الله الذي شارك في هذا الميدان، بتعبير جيد، ومشاركة قوية، عندما جمع أخبار الحمقى والمغفلين في كتاب، ثم الأذكياء في كتاب آخر، ثم أخبار النساء في كتاب ثالث. إلا أن نسبة الاختيارات الشعرية في هذه الكتب عنده قليلة.

والخطيب البغدادي (392 - 463 هـ)، في كتاب: البخلاء، ثم بما يورد من شواهد في التراجم، في كتابه الآخر: تاريخ بغداد، وكتابه الثالث: خزانة الأدب.. مع أن منهجه رصين علمي.

وغيرهم ممن دخل هذا الميدان، سواء في التراجم، أو في كتب الأدب والمسامرات والأخبار، وذلك للبرهنة أمام من يقرأ لهم: عن إفساح المجال أمام النفس لتستمتع بالحلال، ولتترتاح من سأم الحياة، وجديتها بالطرفة الصادقة، والفكاهة البريئة، والخبر الموثق بالسنة: رواية ودراية وتمحيصاً. ومثله الذهبي (673 - 747 هـ) في سير أعلام النبلاء، وابن عساكر (630 - 711 هـ) في تاريخ دمشق.

وما ذلك إلا لكي ينتقلوا بالناس من حال الاسترسال والتوسع، الذي قاد إلى التبذل والسقوط بالعبارات والحكايات إلى حال مقبولة، لا تبعدهم عن الجدية، أو تلهيهم عن الواجبات الدينية، مع تذكيرهم بأن: كثرة الضحك تميم القلب.

وبترغيب رسول الله صلى الله عليه وسلم في ترك المزاح وإن كان صادقا، حيث لمسوا تجاوز الناس في هذا بما تنفر منه الأسماع، وتحبييهم إلى نوع منه معين، يتصف بالوقار، وفي حدود معقوله، أخذا بالآثر: ((روحوا عن النفوس ساعة، فإن النفوس إذا كلت ملت))¹.

وما اختطوه في كتبهم وفق هذا المنحى، لم ينقص من مكتبهم، ولا أساء إلى سمعة واحد منهم، مع وقارهم وعلمهم، وسمعتهم ومكانتهم الاجتماعية.

نماذج من الظرفاء:

وباستعراض بعض الكتب المؤلفة في هذا المجال، وما ورد فيها من أشعار مرحة، تأخذ القراء للتفكه، وتتبع العمر الزمني لكل قائل، إذا عرف هذا: يستطيع الدارس الخروج بنتيجة عن التطورات في مدرسة الشعر المستظرف، الذي يستأنس به بعض الناس في مجالسهم وأسمارهم، منذ العصر الجاهلين حتى العصر العباسي الثاني، ثم امتداده لما بعده.. ممن تأثرا بما جرى في هذه الحقبة، ومع الاستقرار لهذه الفترة.. فإننا يمكن أن نجعل للعصر العباسي مكانة بارزة، في نضوج هذه المدرسة: قولاً وحفظاً، ورصداً ونقداً وكثرة إنتاج.

أما من تفرغ لهذا النوع من الأدب، بحيث أصبح أكثر إنتاجه الشعري، ينصب في هذا القالب، وما ظهر من إنتاجه، واعتبر مادة دسمة يتصيد بها المؤلفون، ويستقون منها في تجميعهم، ويروونه في مختاراتهم التي أثرت المكتبة الأدبية، في امتداد العالم الإسلامي، حيث استمد من جاء بعدهم منهم: فممنهم شعراء، انطبعت أسماؤهم بهذا اللون، وبرزت البسمة على حروف أسمائهم، منذ أن تصافح الأذن، فقد اختطوا لأنفسهم منهجا ثابتا في هذا المجال، عرفوا بألقاب وكنى، تحمل الطابع ((الكوميدي))، المازل شكلا ونطقا.

¹ يشهد له ما جاء عند مسلم: يا حنظلة ساعة وساعة.

وقد تكون شخصياتهم عادية، ولا شيء يثير الانتباه نحوهم، ولكن تحليل المعنى وتتبع حركات بعضهم، وسيرته وحياته، من واقع إنتاجه، فإنه يبرز ما يعطيهم السمة المرحية.

كل هذا يدل على أن لكل منهم وصفا متميزا، وصورة تلفت النظر، وحركات غير اعتيادية، تثير الضحك، وتجلب المفاكهة، وقد يكون بعضهم هو الذي أطلق ذلك اللقب على نفسه، حتى يلفت النظر إلى نفسه، فلا يكاد يعرف اسمه الحقيقي، وهؤلاء أمثال:

- أبي فرعون الشاشي من شعراء العصر الأموي، وقد ملت إلى أن أبا الشمقمق استفاد منه، واتصل به باعتباره السابق، أما اللاحق فله فضل الإجابة، كما يقول الجاحظ.

- وأبي الشمقمق (112 - 200 هـ)، وهو شاعر مخضرم، أدرك آخر دولة بني أمية، وجزءا كبيرا من عهد بني العباس، وقد رأيت في بحثي عنه، ودراسة حياته، أنه من شعراء الفقر السخرية.

- ومطيع بن إياس (000 - 161 هـ)، وسلم الخاسر (000 - 186 هـ) اللذين عاصرا أبا الشمقمق وماتا قبله، وقد سمي الأخير خاسرا؛ لأنه باع مصحفا بطنبور للغناء.

- وأبي دلامة (000 - 161 هـ)، الذي عاصر المهدي والمنصور، وله معهما مفاكهات شعرية كثيرة، كقوله في رحلة صيد مع المهدي:

قد رمى المهدي ظبيا شج بالسهم فواده

وعلي بن سليمان (م) رمى كلبا فصاده

فهنيئا لهما (م) كل امرئ بأكل زاده

- والخبز أرزي الذي أخذ اسمه من صنعته، حيث كان خبازا، يخبز دقيق الأرز: فكان مستظرفا فيأتون إليه، للأخذ من شعره ومن خبزه أيضا يشترون.

- والجماز صاحب الطرفة الحاضرة، والنادرة الرصينة، الذي يقال عنه أنه دعا ثلاثة من إخوانه، وقال لا يأتي معكم أحد، فأرادوا إخراجهم، فجاءوا معهم بثلاثة آخرين، وعندما قرعوا الباب اتفقوا على الوقوف على رجل واحدة، حتى إذا نظر من أسفل الباب كما هي عادته، لا يشك أنهم ثلاثة كما عرفهم، فلما فتح إذا هم ستة فأقفل الباب دونهم، وقال لقد دعوت رجالا ولم أدع ((كراكي))، نوع من الطيور يقف على رجل واحدة.

- وأبي الرمقمم الذي يماثل أبا الشمقمم في السمة الشعرية، كما أن اسميهما: وزنا وسجعا واحد. وغيرهم ممن نحا نحوهم.

وهؤلاء بصفة عامة، قد أطلق عليهم النقاد والدارسون لحياتهم وشعرهم: شعراء ((الكدية)). لفقرهم ولأنهم يترزقون بشعرهم، ويجعلونه طريقا للسؤال، واتخذوا المفاكهة والتظرف سبيلا لغياتهم.

ويلاحظ المتتبع لحياة هؤلاء، أنهم عاشوا في المئة الثانية من الهجرة، وهي نهاية الدولة الأموية، وبداية الدولة العباسية في عصرها الأول، مما نستطيع معه القول بأن مدرسة الشعر الفكاهي، في الأدب العربي قد قويت، واشتد ساعدها في هذه الفترة، وعندي أن الطفيليين ليسوا منهم؛ لأن هؤلاء لم ينتهجوا الفكاهة مطية تقربهم إلى مجالس.

كما أن من جاء بعد هذا التاريخ، يستمد مادته من أمثال هؤلاء الذي يتزايد عددهم، وأن الراصدين للمادة التي هم مصدرها، جاءوا بعد ذلك، حيث توفرت: شكلا ومضمونا، فكانت جاهزة للجمع والنقد والتدوين.

مبررات الظرافة:

إن خفة الظل، وتحيي الروح المرحية، التي تكسب صاحبها مكانة في هذا الميدان، ما هي إلا صفات تكوينية في بعض الناس، تجلب عليها نفوسهم منذ تكوينها، وخروج ذلك على سطح التظرف، بروزا في المجتمع، وشيئا محسوسا عند الناس، يجعلهم يعرفون ذلك الإنسان، بهذه الصفة، إنما ينمي أو يميته ما

يعلق بأذهان المهتمين عن ذلك الشخص، وما يتركه عمله من أثر في نفوسهم، يكبر مع الأيام. ولم تكن هذه الصفة يدخلها كل من يريد، ولكنه استعداد نفسي ينمو بالدربة والتقليد.

وأرى أن هذا الاهتمام، وما توفر عنه من كثرة في تراثنا الأدبي، من هذا اللون المرح في التطرف والمزاح، والمفاكهات يرجع لأمر منها:

1- الترف الاجتماعي، والوفرة المالية، وتغير نمط الحياة: من شدة في كسب المعيشة، إلى سبل ميسرة لولوج مجالس عليية المجتمع بحسب القدرة في التأثير.

2- زيادة البطالة، وعدم تنظيم حياة الناس، حيث الطبقة: بين عني مترف، وفقير وهجرة إلى المدن، التي بها الطبقة المترفة.. التي تحرص على تصيد هذا النوع. وتثيب عليه، وهذه الصنعة بابها سهل ولوجه.

3- الرغبة في إشغال الناس وإلهائهم.

4- كثرة مجالس الشراب، والحاجة إلى الندماء في المجالس والأمسيات، وتهيئة الجو المناسب من باب الترويح عن النفوس.

5- ضعف الوازع الديني، وعدم تغلغل تعاليم الإسلام، في قلوب كثير من أبناء الأمم المغلوبة، والتي دخلت بلادهم تحت راية الإسلام، حيث يخوض بعضهم في كلام هدفه، إضحاك الآخرين، وكسب رضاهم بإمتاعهم، حتى ينال رفاهم، ولا يتفكر في مفهوم وعاقبة ما أقدم عليه، ولا عن علاقته بالدين والعقيدة، أو ما إذا كان يمس الأخلاق، ويستوجب التحفظ؛ لأن بعض ما يدور في مثل هذه الجلسات، من فعل أو كلام يستوجب حدا شرعيا، كما هي الحال في بعض أشعار الفرزدق وأبي نواس وابن هاني الأندلسي، في مبالغاته في المديح، بما أوجب كفره، إذ جعل ممدوحة ندا لله سبحانه.

- 6- تشجيع هذا اللون من علية المجتمع، وأثابتهم عليه، واهتمامهم، بالظرفاء ذوي القدرة على تحريك الجو في الجلسات بالمناسب مع رواد الجلسة.
- 7- تهيئة الأسباب المعينة على ذلك بالعطاء أولاً، وبالإشادة بمن عرفوا به، ثم بفتح باب المنافسة، بينهم، وتقديم الأقدار.
- 8- توافر الجوّاري والغلمان مع الفتوحات، مما أوجد فئة مهنتها، تعليم هؤلاء، وتدريبهم لمثل هذه المهمة، حتى صاروا يباعون بأغلى الأثمان، ما دامت الشروط المطلوبة في الجلسات والمناذمة متوافرة، بل كلما زادت المهارة في الجارية مع جمالها وخفة ظلها، بالغوا في الثمن.
- 9- وهناك من اتخذ التطرف والتكسب بهذه الصنعة، مصدراً من مصادر المعيشة، ووسيلة لابتزاز المال والحصول عليه، ويظهر مثل هذا عند الأحوص، وأبي فرعون الشاشي وأبي دلالة وأشعب، وغيرهم.
- 10- الاستفادة من آداب الأمم المغلوبة، بعد أن دخل الإسلام ديارهم، كالفرس والرومان، والترك والهنود، في هذا اللون من الأدب، ومحاكاة من تخصص منهم في هذا المجال، بعد ترجمة علومهم ومعرفة مجالس أنسهم وأعيادهم وما يعملون فيها، كما في ((النيروز)) عند الفرس، الذي أصبح الوجهاء في الدولة العباسية يهتمون به، ويتهادون ويتظارفون بمناسبته، ويحاكون ما عند الفرس في هذا العيد، مع أن الإسلام - بمقتته - فساروا على منوال ما عند تلك الأمم، بتأليف نوع جديد من الأدب العربي، يجمع بين المتعة والظرافة.
- 11- عدك الإفصاح عن أشياء مكنونة: سياسية وعقائدية وفكرية، والتعبير عن ذلك بالرموز، والاستتار خوفاً من السلطة على سبيل التطرف والمفاكهة، كما هي الصورة البارزة في رسائل إخوان الصفا وكتاب كليله ودمنة، الذي ترجمه ابن المقفع (106 - 142هـ)، إلى اللغة العربية.

وكما يظهر في بعض أشعار بشار بن برد (95 - 167 هـ)، وصالح بن عبد القدوس (000 - 160 هـ)، اللذين قتلا بتهمة الزندقة، وحامد بن عجرد (000 - 161 هـ)، الذي دار بينه وبين بشار ابن برد، أهاج فاحشة.

وكما يجيء في أشعار أوردها بديع الزمان الهمداني (358 - 398 هـ) في مقاماته، وبعض رسائله ومقالاته، وكذلك الحريري (446 - 516 هـ) في مقاماته أيضا.

وهذه النقطة الأخيرة، هي التي يرى الدكتور: أحمد الحوفي في كتابه: الفكاهة في الأدب العربي: أصولها وأحوالها: أنها دفعت المصريين في مختلف العصور، للتعبير عن كوامن نفوسهم، والتنفيس عن خفاياهم بالنكتة اللاذعة، والمفاكهة التي تحمل الطرافة والسخرية، حسب الأحوال التي تمر بهم¹.

ويقاس على ذلك ما يبرز عند بعض شعوب الأرض، عندما تمر بهم أزمة، وخاصة ما يؤثر في مستوى معيشتهم، حيث ينفسون عما في قلوبهم، وآلامهم في مجتمعهم، بمثل هذا المسلك.

التقليد والمحاكاة:

هناك قسم من الشعراء، دخلوا هذا الباب، من قبيل التقليد والمجالسة، والمحاكاة في الهدف والغاية، حتى يستملح قولهم، ويستعذب إنتاجهم.

وهؤلاء عددهم كثير، يبرز إنتاجهم في كثير من كتب التجميع والرصد، في مثل ما رواه الأصمعي (122 - 216 هـ) والحمادون الثلاثة، وخلف الأحمر (000 - 180 هـ)، وفيما جاء في أشعار بعض الذين لا يريدون أن يقصر باعهم، عمن دخل هذا الميدان، بعد ما رأوا الناس، وفي مقدمتهم عليّة القوم، ينجذبون لهذا اللون، ويهتمون به: قولاً وترديداً، وإشادة بأسماء من قاله، والإثابة عليه.

¹ يراجع هذا الكتاب وما فيه من تحليل.

وهذا شبيه بما يلاحظ اليوم، في النواحي الإعلامية، وما يتجه إليه بعض الكتاب، رغبة في الشهرة، وحبا في البروز، لكي يشار إليهم بالبنان.

والنفس البشرية بطبيعتها، تحب الإشادة، وتهتم بالثناء (ويتراءى) مثل هذا في قصائد الحمدوني، التي أظن أمير الشعراء أحمد شوقي (1258 - 1351 هـ)، قد استفاد منها في مفاكهاته، مع صديقه الدكتور: محبوب.

ومثل ذلك ما يروى للشاعر المصري ((الذيب))، وما برز في شعره من تندر على حاله وفقره، وما ينسب لنفسه من الشؤم، بحيث انصرف الناس عنه، فصور حاله بأشعاره وانعزاله عن المجتمع. فكان لا يرفع فقره إلا ما يجود به عليه بعض العارفين بحاله من الأدباء.

- وفي مثل قصيدة بشار بن بردن التي قالها في شاة أهديت إليه أضحية، فجسها ورآها ضعيفة العظم، قليلة اللحم¹.

وفي بعض قصائد ابن الرومي (221 - 283 هـ)، ومروان بن أبي حفصة (105 - 182 هـ)، وأبي العتاهية (130 - 211 هـ).

وفيما أورده الجاحظ (163 - 255 هـ)، في كتابه: البخلاء، من أشعار أغلبها في الهجاء والتشنيع بشدة البخل، كقوله في رجل يسمى عيسى:

يقتري عيسى على نفسه وليس بياق ولا خالد

ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

¹ يراجع في هذا ديوان شعر شوقي، وديوان شعر الذيب، وديوان بشار بن برد قافية الرء

أو في مثل نواذر متعددة، ينقلها أبو إسحاق الحصري القيرواني (363 - 413 هـ)، في كتابه زهر الآداب، وفي كتابيه الآخرين: الملح والنواذر، والمصون في سر الهوى المكنون، وغير ذلك من أشعار تنسب لهذا أو ذاك، أو لغير معلوم.

هذه الأمور قلما يخلو منها واحد من أمهات الكتب، في الأدب والبلاغة، والتي هي مصدر مهم، في تسجيل واقع الحياة الاجتماعية، وتصور أوضاع كل جيل ذكرت فيه، حيث نراها متشابهة، ما بين العصر الأموي، والعصر العباسي كله.

كما أنها تسير مع التاريخ في الأندلس، ثم بعد سقوط الأندلس، وفي الدول المتتابعة في الشمال الأفريقي، وبعد ما آلت الخلافة في المشرق العربي، إلى بني عثمان، وامتدت الجذور إلى الآن.

وإن كان من الملاحظ، أن الغالي على ما رصد من متفرقات في الأدب: حكايات ومسامرات، وأشعار فكاهية، وأمثال ونواذر، بالطابع الشرقي، مما يدل على تغلب المشرق العربي، في روح المفاكهة والمناذمات، على المغرب العربي.

لكن لكل بيئة سميتها وطابعها، ولكل شاعر منهج في التعبير عما يدور حوله، وربطه بالحوادث من حوله، أما الإطار العام فهو واحد، والاتجاه لا يتباين.

وهذا اللون قد يصعب تحديده؛ لأن كل شاعر، وكل أديب ومتكلم، يجب أن يشارك في بضاعة أصبح لها سوق رائجة، ولا يحدها حدود، إما من الرواة أو من الكتاب الذين ألفوا، أو غيرهم.

وكل يشارك بحسب قدرته: قلة أو كثرة، بحسب التشبع بالفكرة، وبحسب مقدرته أيضا على الخوض في عباب هذا اليم. ثم بحسب الجو المشجع والمعين على النشر، وطلب الاستزادة.

لكل قاعدة عيوبها:

لقد برز في هذا اللون من الأدب: شعرا ونثرا، شعراء، ظرفاء، تجاوزوا الحد، وأسفوا في القول، ومالوا إلى المجون، والانحطاط في اللفظ والمعنى... ولكل قاعدة شذوذها كما يقال.

فقد عرف بهذا الانحدار شعراء خاضوا في لون من المفاكهة، يمجها العقل، ويأنف من سماعها، أصحاب الذوق السليم.

لأن هذا مما ينهى عنه الدين، كما في أشعار بن سكرة (000 - 385 هـ)¹ وابن حجاج (000 - 391 هـ)².

وفي مجونات أبي نواس وغيرهم. ممن يعتبر قولهم في هذا المجال، من الأدب المكشوف، الذي نهي الإسلام عن ذكره، ويعاقب عليه، ويدخل في هذا مجالس الشراب، والتفاخر بها، والغزل بالمذكر والفحش والمجون وغير ذلك.

وأشد من ذلك تردده، ومن ثم نشره في المجتمع، لما فيه من تعرض للسوءات، وخاصة التغزل في المذكر، أو ذكر كلمات نابية عن السمع، وهذا اللون اهتم به بعض المستشرقين.

وقد تورع كثير من كتاب النكتة الأدبية، والطرفة الشعرية، عن رواية مثل هذا الشعر، أو إثباته في كتبهم، سواء كان شعرا أو نثرا.. وبعضهم أورد منه تحت باب المجون والسخف، كالراغب الأصبهاني و- كابن قتيبة (212 - 276 هـ)، وأبي إسحاق الصحرى القيرواني (363 - 413 هـ)، وابن رشيق (000 - 456 هـ)، وعبد الكريم النهشلي وغيرهم.

وهؤلاء الثلاثة من علماء المغرب العربي، مما استنتج معه: أن الرصانة والسمت، لدى أدباء المغرب، في ذلك العهد، أمكن مما هي لدى أدباء المشرق، في بداية الرصد لهذا اللون من الأدب.

¹ اسمه: محمد بن عبد الله، وهو صاحب البيتين: ((جاء الشتاء وعندي من حوائجه .. خمس)) الخ.

² اسمه: حسين بن أحمد. قال عنه الذهبي: شاعر العصر، وسفيه الأدب، وأمير الفحش، كان أمة وحده في نظم القبائح وخفة الروح.

ولعل هذا جاء من مخالطة المشاركة لأدباء غير عرب، ولأن أكثر من طرق هذا الباب في المشرق من الموالي، الذين أصولهم ترجع إلى المشرق أيضاً: فآثر هؤلاء الموالي في أبناء المجتمع، وجذبوهم إلى ذلك المشرق، فانساقوا معهم.

هذا من جانب، ومن جانب آخر: فأكثر فرسان هذا الميدان في المشرق، لديهم هنات وضعف في التمسك الديني، ومنهم من رمي بالزندقة، وهم أدباء جذورهم وثقافتهم ليست عربية، حيث تتوافر فيهم بعض الأسباب التي مرت آنفاً، وبعضهم عرف بالانتماء إلى فرق باطنية ضالة، ويميل إلى طوائف عرفت في الملل والنحل بالانحراف.

يقول الدكتور: عبده قلقيلة: إنه لم يكن بالمغرب مجون، بالمعنى الذي كان للكلمة في المشرق، بل ولا بالمعنى اللغوي لها.

وما وجد عندهم مما سماه بعضهم مجونا، إنما هو ضحك وإضحاك، كشعر يروى لابن رشيق عن نفسه، وكان أحول، وعن ابن شرف القيرواني، وكان أعور، وعن الطوسي وكان أعمى¹.

إلا أن العدوى سرت في الشعر المغربي، وفي الأندلس بصفة خاصة، بعد ما دخل الميدان أناس من طبقات شتى، وبمآرب متعددة، وبعدما كثر الترف، وكثرت مجالس الشرب، التي كانوا يطلقون عليها، مجالس الإنس، ومجالس المنادمة.

وتبرز نماذج من هذا النوع، عند النويري (677 - 732 هـ)، فيما أورده بأحد أجزاء كتابه الموسوم: ب نهاية الأرب.

وفي أشياء أوردها ابن عبد ربه (246 - 328 هـ)، في كتابه العقد الفريد، في مواضع متعددة منه، ويعتبر ابن عبد ربه - فيما ظهر لي - من أول الناقلين، من ذلك اللون الأدبي، في مختارات، من أدباء المغرب.

¹ ينظر كتابه: البلاط الأدبي للمغربي بن باديس، ص 244.

وعند العاملي المتوفى بمصر عام 1031 هـ، في مثل إثباته قصيدة لابن الحجاج، في كتابه الكشكول هي غاية في التبذل والتهتك.

وقد أورد ياقوت الحموي (574 - 626 هـ) في كتابه: معجم الأدباء نماذج من هذا الشعر، لم أستحسن ذكرها أو الخوض في بحرهما؛ لأنني ممن لا يستسيغها أو يميل إليها، أخذنا من اهتمام وحرص مبادئ ديننا الحنيف، في الابتعاد عن فلتات اللسان، وعن الفحش في القول.

- وهناك أناس صرفوا ملحمهم ونوادرهم في العصر العباسي بالذات، ثم في الأندلس والشمال الأفريقي، إلى وصف ألوان من الطعام والفطائر، وهذا غرض جديد، مستظرف وجد في هذا العصر؛ لأن تداخل الحضارات، أوجد في حياة العرب أنواعا جديدة، من الأطعمة والألبسة، لم تكن معهودة في بيئاتهم.. حتى أن بعض الجواري كانت ملابسهن، موشاة ومطرزة، بأبيات من الشعر مدحا وغزلا. مما جعل بعض الشعراء يدرجون تلك الظاهرة في أشعارهم، وكل ذلك من ألوان الحضارة وترفها.

وقد برز في التعرض لهذا الجديد كثير من الشعراء والأدباء، ومنهم: الوشاء، والمغربي.

كم شارك في هذا عمالقة الشعراء ذلك الوقت؛ لأن ذوي الجاه دفعوهم إلى المشاركة في هذا النوع الجديد وإبرازه، وخاصة عندما تقدم الموائد، فيأتي الطلب بوصف بعض تلك الأطعمة وخاصة منها ما كان جديدا في حياة العرب، من باب استملاحه واستحسانه. كالمضيرة والفالودج وغيرهما.

وقد كان بعض الشعراء والظرفاء، يتكسب بذلك القول، في مجالس عليية طبقات المجتمع، حيث يستملح قولهم، ويتندر الناس بأوصافهم واقتباساتهم.

يقول محمد بن أحمد المغربي، في قصيدة يصف بها مضيرة، وصفها وهو على مائدة أحد الولاة بخراسان:

ولحمها حلل للزهر قد جعلت من أبيض الثلج فيما بينها حجب

توافق الشيخ والكهل الذين هما من الرطوبة في حال هي العطب

السنة الثانية عشرة رمضان - ذو الحجة 1430 هـ

الدرعية

وللأبازير نفخ من دواخلها كالمسك لا بل إليها المسك ينتسب

يا حسننها وهي بالأيدي تفار بلا جرم أته وباللحاظ تنتهب

من حالفته فقد جلت مواهبه ونال من دهره أضعاف ما يجب¹

وقد استفاد من هذا الينبوع، كثير من شعراء هذا العصر، في وصف الأطعمة، وفي معارضات قصائد الأوائل .. كما حصل عند الرعيل الأول من طلاب در التوحيد بالطائف، مثل:

- قول أهدهم في معارضته لمعلقة عمرو بن كلثوم التغلبي، وقصته مع عمرو ابن هند المشهورة، وهي قصيدة طويلة نحتري منها قوله:

بأي مشيئة تيس ابن عنز متى كنا لأملك ناطحينا

بأي مشيئة تيس بن عنز ترى أنا نكون الجائعينا

ونشرب عن وردنا الشاي صفوا ويشرب غيرنا تولا ثخيننا

ويقول هذا مع مساعدة بعض الزملاء، قصائد عديدة، تلقى في النادي الأدبي، بدار التوحيد في حدود عام 1368 - 1370 هـ، ويقدمها زميل لهم شكله وطريقة إلقائه يجلب الضحك² ولا نحب تسمية أحد منهم؛ لأن بعضهم قد مات رحمه الله، وبعضهم في عمل لا يناسب معه مزاح الطلاب ومداعتهم، ومرح الشباب ومن تلك القصائد نورد بعض أبيات من واحدة منها حيث جاء فيهان وهي طويلة:

¹ معجم الأدباء لياقوت الحموي 17 : 131 - 132، والمغربي هذا رواية المتنبي ومن كتبه: الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي، وكتابه النبيه المنبي عن رذائل المتنبي.

² كان يطلق على ذلك الطالب - رحمه الله - اسم: أبو دلامة والذي سماه الشيخ محمد بن مانع المشرف على الدار عند حضوره النادي رحمه الله.

اضرب بخمسك لا تأكل بملعقة إن الملاعق للنعماء كفران

هذا الجريش طعام لا نظير له عليه من مستهل السمن غدران

وهذا يدل على أن الروح المرحّة، متأصلة في الأدب العربي، وأن اللاحق يستفيد من السابق، ويحاكيه في كل ما هو مستملح، وبما ترتاح إليه النفوس.

وبعد:

فهذه إطلالة على الطرائف والملح في الأدب العربي، وهو موضوع طويل، ويحتاج إلى دراسة متأنية.. لا أقول إنني أوفيته حقه، فهذا ما يحتاج إلى أمور كثيرة منها:

- 1- تحليل النصوص ومقارنتها، وتوضيح الظاهرة لكل جيل: في كثرة الإنتاج ونوعيته.
- 2- الإشارة إلى العوامل المؤثرة في الإنتاج، والجاهزية، إلى هذا النوع من الأدب، ومسبباتها.
- 3- تحليل شخصيات الشعراء، الذين تعرضوا لهذا النوع من الأدب، من النواحي العلمية والاجتماعية والدينية.
- 4- مجالس الخلفاء، وعليه المجتمع، وما جد فيها من حاجة للندماء والمتطرفين.
- 5- البيئة الاجتماعية، ودورها في تنشيط هذا اللون، وتأثير الأمم الأخرى، في المجتمع العربي، بما استقدمته من تراث أممها.
- 6- الدواعي الملحة لهذا اللون، حتى أصبح بضاعة كل يرغب بما عنده بحسب الطلب، ومن ذلك جاء التقليد والمحاكاة والنقل من الأمم الأخرى، وهذه سمة في البشر قديما وحديثا.
- 7- حرص المؤلفين على رصد ذلك التراث باعتباره صدى لما يدور في المجتمع.

8- خلفيات المؤلفين والرواة، والشعراء وطريقتهم في التأليف والنقل، وانعكاس الأثر على المادة المقدمة: سمتا ووقارا، أو تبذلا واحداً.

9- تقبل الطبقة المتعلمة، والمتفاعلة مع ما يدور في البيئة، لهذا النوع من الأدب، والتأثر والتأثير بين السابق واللاحق.

10- السمات البارزة عند كل نوع من المشاركين في هذا العمل: سواء كانوا شعراء أو مؤلفين، أو أدباء، أو رواة أو ندماء أو خلفاء أو ولادة، أو أغنياء أو صعااليك، بمعنى مشاركة طبقات المجتمع، وتفاعل كل نوع منهم، مما يبرهن على تفاعل المجتمعات كلها مع هذا النوع من الأدب.

11- انتشار طبقة جديدة من شرائح المجتمع، الذين عرفوا باسم: الطفيليين والمتطفلين، حيث ولج أكثرهم هذا المجتمع لأغراض متباينة، وغايات قد يكون التطرف ورغبة الاستملاح من بينها.

12- إيراد شواهد تفصيلية، ومن ثم تحليلها: عن منهجية كل واحد من المؤلفين والرواة، والطفيليين، والشعراء الذين اتخذوا هذا الدرب صناعة لهم، وسمة من سماتهم، وعما إذا كان المزاح والتطرف جاء عندهم عرضاً أو قصداً، وطريقتهم في ذلك.

كل هذه الأمور، وبإجراء دراسة وافية - مما لا يتسع له هذا المقام - تعطي صورة واضحة عن ظاهرة الفكاهة، ودواعيها في أدبنا العربي، بصفة عامة، والشعر بصفة خاصة، وعن أسبابها ومؤثراتها، وما استمدته عن الآداب الأخرى.. ودور التغير الاجتماعي في الحياة العربية، على نقل الصورة، ووضع المعالم، مع حب البروز والتجديد عند بعض الشعراء، والاهتمام بالبحث عن الدواعي المعينة على ذلك.

ومع ذلك فإنني أميل إلى القول: بأن النكتة والملحة في الشعر العربي، لم تكن مقصودة في الأصل لذات النكتة بهدف الإضحاك، في بداية الأمر، وإنما جاءت بنوع من الذكاء، والتحوير اللغوي عن

معناها، لصرف السامع من حال إلى حال.. وإشغال فئة من طبقات المجتمع، بما يصرفهم عن أمور ومشكلات في البيئة: سياسية كانت، أو شخصية أو قبلية أو اجتماعية أو مذهبية.

فهي ملكة طبيعية، ثم تحولت إلى صنعة ذات دلالة، في فترة الاستقرار السياسي، والتوسع في الملذات مع وفرة الرزق، ثم مال بها أصحابها، إلى نوع من التكسب من قبل الأفراد والأدباء والندماء، الذي أضفت مواهبهم وقدراتهم على الموضوع، حواشي ومقالات - كالأبازير مع الطعام - وذلك بزيادة أشياء لها طابع الاستملاح والقابلية عن المتلقين، من ذاتية أنفسهم، أو تصيد ما يدور في المجتمع، ونسبة ذلك لأناس لهم باع في مجال المفاكهة والمخارفة، بحيث أصبحت عند هؤلاء حرفة تمتهن، وكدية يستجدي بها.

وقصص الرواة والندماء في هذا مشهورة: كخلف الأحمر (000 - نحو 180 هـ)، الذي استغل طه حسين، ومن قبله أستاذه المستشرق ((مرجليوث)) (1274 - 1359 هـ)¹، ما جاء بأن ما ألف، لطنع الأدب العربي، جملة وتفصيلاً بالتشكيك فيه.. مما أحدث ضجة وردودا عليهما، وعلى كتابه: الأدب العربي.

كما استغل ذوو المآرب الدينية، والمذاهب الباطنية، هذا النوع من الشعر فاندسوا، ليطعنوا أمة الإسلام، ويستغلوا تعاطف فئة من أبناء العرب والمسلمين، يميلون لهذا النوع من الأدب، ليحققوا مآرب بعيدة المدى، كما يتضح في شعر الزندقة، الذي بدأ في العهد العباسي الأول، مع الشعبية التي تكاثرت عددها ذلك الوقت، ودونت بعض الكتب نماذج من ذلك، تمجد: أولاً العجم وتفضلهم على العرب، ثم امتد الأثر إلى الإشادة بكل ما يتنافى مع الدين الإسلامي، مع الطعن في بعض رجالات الإسلام، والاستهزاء بأعمالهم، وتحسيم أفعال ليست لهم، على أنها لهم، ومن ثم تفضيل الشعبية والأعاجم على العرب، مستغلين مثالب - مفتعلة ومجسمة - منسوبة إلى العرب، جاءت أولاً على أنها ملحّة، وهي وراءها ما وراءها، كقول بشار يفتخر بنسبه:

¹ اسمه: رافيد صموئيل. انجليزي بوتستاني من كبار المستشرقين. كان مدرسا في الجامعة الأهلية بمصر - جامعة القاهرة.

نمت في الكرام بني عامر فروعني وأصلي قريش العجم¹

وهذه النقطة، تحتاج من الدارس حيزاً أكبر، لنورد الشواهد التي تبرهن واقع الحال.

كما يبرز أمامنا في ظاهرة الشعر الذي نتحدث عنه، أن انتشاره في المغرب العربي والأندلس، جاء بعد محاكاة لمسيرته في المشرق الإسلامي، إلا أنه اتسع، وأخذ ظاهرة الزندقة والإلحاد، في عهد الفاطميين، في مصر والشمال الأفريقي، التي فتحت قاداتها الباب لشعرائهم بالقول حسبما يحلو، بدون وازع ديني، أو رادع من حاكم مسلم يدافع عن الدين، كما في أشعار ابن هاني الأندلسي (36 – 362 هـ) المولود في أشبيلية بالأندلس، من كفرياتة قوله يمدح المعز لدين الله الفاطمي في قصيدة مطلعها:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار²

فقد جعل المعز الفاطمي العبيدي الباطني، نداً لله عز وجل تعالى الله عن ذلك، وشبهه بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وجعل أصحابه كالأنصار رضي الله عنهم، وشتان بين الضدين.

وكما قلت من قبل، فالباب واسع، والموضوع متشعب، يحتاج لوقفات ودراسة واسعة، متأنية، مقرونة بالشواهد والزمن، وتحليل المؤثرات عند كل فئة، ومع كل شاهد.

نماذج من الطرائف:

إن من باب إمتاع القارئ والمستمع، أن نورد في نهاية هذا البحث، بعضاً من المواقف المرححة في أدبنا العربي، وأستمح القارئ عذراً، عن عدم ذكر ما لا يستسيغه سمعي، من تلك الهنات التي تأتي في النوادر

¹ ديوان بشار؛ تحقيق الطاهر بن عاشور ج 4 ص 169.

² كتاب ابن هاني لأحمد خالد ص 123.

الطريقة، وما على راغبها، إلا الرجوع إليها في مظانها من كتب المتفرقات والأدب، وإن كان شيء من ذلك يوجد في الكتب التي مر ذكرها.

وهي كثيرة في تراث العرب: مشرقهم ومغربهم، ومما حفلت به دراسة المستشرقين، لرواجها عند الخاصة والعامة.

كما يلاحظ القارئ، أنني أوردت بعضاً من النوادر المرححة، التي استساغها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قدوتنا وإمامنا عليه الصلاة والسلام، وهي وإن كانت ليست من الشعر باعتبارها من قواعد تلك المدرسة؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعيد عن الشعر، كما قال جل وعلا: { وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ }¹ ومن ذلك شاهدا لا استقصاء.

1- أورد صاحب مشكاة المصابيح للتبريزي (421 - 502 هـ)، تحقيق الألباني الجزء الثالث:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله: ((إنك تداعبنا؟ قال: إني لا أقول إلا حقاً)) رواه الترمذي.

- وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً من أهل البادية، كان اسمه زاهر بن حرام، وكان يهدي للنبي صلى الله عليه وسلم من البادية، فيجهزه رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أراد الخروج، فقال صلى الله عليه وسلم: ((إن زاهراً باديتنا ونحن حاضره)). وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبه، وكان دميماً، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً، وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، وهو لا يبصره فقال "أرسلني من هذا؟!!". فالتفت فعرف النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل لا يألو ما ألزق ظهره بصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين عرفه ÷ وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((من يشتري العبد؟)) فقال: يا رسول الله

¹ سورة يس، الآية: 69.

إذا والله تجديني كاسدا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((لكن عند الله لست بكاسد)) رواه في شرح السنن¹.

- وعن عوف بن مالك الأشجعي، قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وهو في قبة من آدم، فسلمت فرد علي السلام. وقال: ((أدخل)). فقلت: أكلي يا رسول الله؟! قال: (كلك) فدخلت. قال عثمان بن أبي عاتكة: إنما قال: أدخل كلي من صغر القبة. رواه أبو داود.

2- جاء عند ابن عبد البر (368 - 463) في الاستيعاب الجزء الرابع بعض من مزاح نعيمان ومن ذلك: أورد بالإسناد أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل المسجد وأناخ ناقته، بفناء المسجد، فقال بعض اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، لنعيمان الأنصاري: لو نحرثها فأكلنا، فإننا قد قرمنا إلى اللحم؟ ويغرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمنها. قال: فنحرها نعيمان، ثم خرج الأعرابي فرأى راحلته.. فصاح واعقراه يا محمد!! فخرج النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ((من فعل هذا؟)) قالوا: النعيمان² فاتبعه يسأل عنه، فوجده في دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، قد اختفى في خندق، وجعل عليه الجريد والسعف، فأشار إليه رجل، ورفع صوته يقول: ما رأيته يا رسول الله، وأشار بإصبعه حيث هو. فأخرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تغير وجهه بالسعف، الذي سقط عليه، فقال: ((ما حملك على ما فعلت؟)) قال: الذي دلوك علي يا رسول الله، أمروني بذلك. قال: فجعل رسول الله يسمح عن وجهه ويضحك. قال: ثم غرمها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

- خرج أبو بكر رضي الله عنه، قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، في تجارة إلى بصرى، ومعه نعيمان بن عمرو وسويبط بن حرملة، وهما ممن شهد بدرا مع رسول الله صلى

¹ وانظر أخباره مع رسول الله في أسد الغابة 2: 245 - 246 واسمه: زاهر بن حرام الأشجعي.

² اسمه نعيمان بن عمرو الأنصاري من بني النجار، أخباره مع رسول الله عند ابن الأثير في أسد الغابة 5: 351 - 352.

الله عليه وسلم، وكان سوييط على الزاد، وكان نعيمان مزاجيا، فقال نعيمان لسوييط: أطعمني، فقال: لا أطعمك حتى يأتي أبو بكر (51 ق هـ - 13 هـ). فقال: لأغيظنك. فمروا بقوم. فقال نعيمان لهم: تشترون مني عبدا؟ قالوا: نعم. قال: إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم لست عبدا، وأنا ابن عمه. فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه. فلا تشتروه وتفسدوا علي عبدي. قالوا: بل نشتره، ولا ننظر إلى قوله، فاشتروه منه بعشر قلائص، ثم جاءوا ليأخذوه، فامتنع منهم، فوضعوا في عنقه عمامة، فقل لهم: إنه يتهزأ بي، ولست بعبده، فقالوا: قد أخبرنا خبرك، ولم يسمعوا كلامه، فجاء أبو بكر فأخبروه خبره، فاتبع القوم، فأخبرهم أنه يمزح، ورد عليهم القلائص، وأخذ سوييطا منهم. فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره الخبر، فضحك من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا، قال الزبير: وأكثر.

3- وقصة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه (000 - 8 هـ)، مع امرأته، حين رآته يواقع أمته، فجحدها وقالت له: إن كنت صادقا فاقرأ القرآن، فإن الجنب لا يقرأ القرآن، فقال:

شهدت بأن وعد الله حق
وأن النار مثوى المتكبرينا
وأن العرش فوق الماء حق
وفوق العرش رب العالمينا
وتحملة ملائكة غلاظ
ملائكة الإله مسومينا

ف قالت امرأته: صدق الله، وكذبت عيني، وكانت لا تقرأ القرآن، ولا تحفظ منه شيئا، فأتى ابن رواحة رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه، فضحك ولم ينكر عليه¹.

¹ تنظر هذه القصة في ترجمة عبد الله بن رواحة في أسد الغابة لابن الأثير، وفي سير أعلام النبلاء للذهبي.

- وهذا من نماذج الفكاهة أيام دولة الإسلام الأولى، وفي حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الإسلام بسماحته يدعو للمزاح والمطارقة، بقصد الإضحاك والتسرية عن النفوس، حتى لا تكل وتمل. ولم ينكره عليه الصلاة والسلام، بل أضحكه ذلك.

4- وفي العصر العباسي كثر هذا النوع، وبدأ يخرج بصاحبه عن الوقار شيئاً فشيئاً، فهذه أبيات لأبي العيناء الإخباري عن نفسه، وله أشعار كثيرة في الثقلاء، تندرج تحت هذا الباب، يصفهم ويبين بعض صفاتهم فيقول:

الحمد لله ليس لي فرس ولا على باب منزلي حرس

ولا غلام إذا هتف به بادر نحوي كأنه قبس

ابني غلامي وزوجتي أمتي ملكنيها الملاك والعرس

غنيت باليأس واعتصمت به عن كل فرد بوجهه عبس

فما يراني ببابه أبداً طلق الحيا سمح ولا شرس¹

5- وبشار بن برد كان بينه وبين أحد الشعراء في عصره ملاحاة، وفي يوم من الأيام أخذ هذا الشاعر، جائزة من المهدي (127 - 169 هـ)، والشاعر هو مروان بن أبي حفصة (000 - 240 هـ)، المشهور ببخله، فقال له بشار: وكان فقيراً أعطني منها، فامتنع وقال: لأهجونك، فقال: إن هجوتني هجوتك. فقال بشار: وما ذا تقول: قال: أقول:

إني إذا ما شاعر هجانيه أو لج بالقول به لسانيه

أو لجته في أست أمه علانيه بشار يا بشار

¹ معجم الأدباء لياقوت الحموي 18 : 304.

فقفز إليه بشار وسد فمه، وقال: إنه يريد أن يقول شيئاً في أمي، وهو قوله: يا ابن الزانية.. فأرضاه بعدها، ثم حفظها صبيان البصرة، فصاروا يرددونها.

6- قال الأصمعي (122 - 216 هـ)¹، كنت أختلف إلى أعرابي، أقتبس منه الغريب، فكنت إذا استأذنت عليه يقول: يا أمانة إئذني له، فتقول: أدخل.. فاستأذنت عليه مرارا فلم يذكر اسم أمانة، فقلت يرحمك الله، ما أسمعك تذكر أمانة؟. قال: فوجم وجهه فندمت على ما كان مني.. ثم أنشأ يقول:

ظننت أمانة بالطلاق ونجوت من غل الوثاق

بانت فلم يألم لها قلبي ولم تبك المآقي

لو لم يرح بطلاقها لأرحت نفسي بالإباق

ودواء ما لا تستهيه النفس تعجيل الفراق

والعيش ليس بطيب إلفين من غير اتفاق²

7- وهذه صورة تجمع بين الجدية والسخرية، وتمثل صورة من حياة الخلفاء والولاة، فقد حدث جحظة البرمكي (224 - 324 هـ)³، عن العنيس الصيمري (000 - 339 هـ)⁴ قال: كنت عند المتوكل، والبحثري (206 - 284 هـ)، ينشده:

عن أي ثغر تبتسم وبأي طرف تحتكم

¹ اسمه: عبد الملك بن قريش من كبار الحفاظ والرواة في الأدب العربي.

² العقد الفريد لابن عبد ربه 7: 114.

³ اسمه: أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى البرمكي الوزير.

⁴ اسمه: محمد بن أحمد الصيمري كاتب معز الدولة بن بويه.

حتى بلغ قوله:

قل للخليفة، جعفر المتوكل بن المعتصم

والمجتدي بن المجتدي والمنعم بن المنتقم

أسلم ليدين محمد وإذا سلمت فقد سلم

وكان البحري (206 - 284 هـ)، من أبغض الناس إنشادا، يتشدق ويتزاور في مشيه مرة جائيا، ومرة القهقري، ويهز رأسه مرة، ومنكبه أخرى، ويشير بكمه، يقول: أحسنت والله، ثم يقبل على المستمعين فيقول: ما لكم لا تقولون لي أحسنت؟! هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله.

فضجر المتوكل من ذلك، وأقبل علي، فقال " أسمع يا صيمري ما يقول؟. فقلت: بلى يا سيدي فمر فيه بما أحببت. فقال: أهجه على هذا الروي الذي أنشدنيه.

فقلت:

أدخلت رأسك في الحرم وعلمت أنك تنهزم

يا مجتري حذار ويلك من قضاقة ضغم¹

فلقد أسلت لوالديك من المها سيل العرم

والله حلفة صادق ويقبر أحمد والحرم²

فبأي عرض تعتصم وبهتكه جف القلم؟؟!

¹ اسمان للأسد.

² هذا ومثله مما حذفته من الأشعار دليل على رقة الدين عندهم، وإلا فالخلف بغير الله شرك أصغر.

يا ابن الثقيلة والثقيل على قلوب ذوي النعم

وعلى الصغير مع الكبير مع الموالي والحشم

في أي سلاح ترتطم وبأي كف تلتقم

يا ابن المباحة للورى أمن العفاف أو التهم

.....¹

وبياب دارك حانة في بيته يؤتي الحكم

قال: وخرج البحتري مغضبا يعدو، وجعلت أصيح به خلفه:

أدخلت رأسك في الحرم وعلمت أنك تنهزم

والحاضرون غرقوا في الضحك، والمهدي يضحك ويصفق، حتى غاب البحتري، زأمر للصيمري
بـعشرين ألف درهم².

8- دعي أبو دلامة (000 - 161 هـ)، واسمه زند بن الجون الأسدي بالولاء للشهادة هو وابنه
في قضية، ولما خاف أن يطالبه القاضي بتزكية، فقد أنشد في الدهليز، بحيث يسمعه القاضي:

إن الناس غطوني تغطيت عنهم وإن بحثو عني ففيهم مباحث

وإن نبشوا بئري نبشت بئارهم ليعلم قوم كيف تلك البثاثر

فقال القاضي على الفور: كلامك مسموع، وشهادتك مقبولة، ثم غرم القاضي المبلغ الذي جاء
يشهد فيه¹.

¹ بيت مستهجن فيه قذف لأمه وأخته تركته.

² معجم الأدباء لياقوت 18 : 13 - 14.

9- أما هجاء المتنبي لكافور الأحشيدي بمصر، فإنه مما يستمتع به كثير من محبي الفكاهة، في الأدب العربي، كقوله:

لقد كنت أحسب قبل الخصيي أن الرؤوس مقر النهي
فلما نظرت إلى عقله رأيت النهي كلها في الخصي
أو قوله بعد أن أكثر القول في هجاء كافور:

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن سيء بي فيه كلب وهو محمود
ولا توهمت أن الناس قد فقدوا وأن مثل أبي البيضاء موجود
وأن ذات الاسود المثقوب مشغره تطيعه ذي العضاريط الرعايد²
قال بعض الرواة: وهذا مما أحنق كافورا فعمل له مكيدة.

10- قال الحمدوني في أحد الثقلاء:

سألتك بالله إلا صدقت وعلمي بأنك لا تصدق
أتبغض نفسك من ثقلها وإلا فأنت إذا أحمق³

- وقال الحمدوني أيضا، في شاة سعيد بن أحمد، التي أهداها إليه، وقد قال فيها أشعارا كثيرة منها:

أبا سعيد لنا في شاتك العبر جاءت وما إن لها بول ولا بحر
وكيف تبعر شاة عندكم مكثت طعامها الأبيضان الشمس والقمر

¹ المرجع السابق 11: 1651.

² راجع كافوريات أبي الطيب للدكتور نعمان القاضي، ص 316.

³ زهر الآداب للحصري القيرواني 1: 440.

لو أنها أبصرت في نومها علفا غنت له ودموع العين تنحدر

يا معاني لذة الدنيا بأجمعها إني ليفتني من وجهك النظر¹

- ويبدو أن الحمدوني تغلب عليه سمات التطرف، ويحب المازحة كطبيع من طباعه المتأصلة فيه، فقد أهدى إليه ابن حرب طيلسانا، وقد صار هذا الطيلسان موضع تندر، إذ أورد الحصري في زهر الآداب، أكثر من عشر مقطوعات شعرية، نظمها الحمدوني في هذا الطيلسان وحده، ومنها هذه المقطوعة:

طيلسان لابن حرب جاءني قد قضى التمزيق منه وطره

أنا من خوفي عليه أبدا سامري ليس يألو حذره

يا ابن حرب خذه أو فابعث بما نشترى عجلا بصفر عشره

فلعل الله يحييه لنا إن ضربناه ببعض البقره

فهو قد أدرك نوحا فعسى عنده من علم نوح خبره

أبدا يقرأ من يبصره أ إذا كنا عظاما نخره²

11- ومن نماذج الشعر الفكاهي، في الشعر المغربي قول الطوسي وكان أعور:

لا بد في العور من تيه ومن صلف لأنهم يبصرون الناس أنصافا

وكل أحول يلفي ذا مكارمة لأنهم ينظرون الناس أضعافا

والعمى أولى بحال العور لو عرفوا على القياس ولكن خاف من خافا³

¹ زهر الآداب للحصري القيرواني 1: 549.

² زهر الآداب للحصري القيرواني 1: 552.

³ انظر: البلاط الأدبي للمعز لدين الله الفاطمي، ص 244.

- وقال الطوسي في البغال:

أوصيك بالبغل شرا فإنه ابن الحمار
لا يصلح البغل إلا للكد والأسفار
كالعبد إن لم تحنه جنى على الأحرار¹

12- وقال أحدهم ينفر من صوت المغني قريس:

ألا فاسقني قدحا وافرا يعين على البلغم الهائج
أكلنا قريسا وغنى قريس فنحن على شرف الفالج²

13- وكان للمعز بن باديس الصنهاجي (398 - 454 هـ)، غلام يعرف باسم ((فسوة الكلب))،
تولى السلطة فقال فيه الطوسي:

إننا إلى الله راجعون لقد هان على الله أهل ذا البلد
((أفسوة الكلب)) جاء يملكها فكيف لو كان ضرورة الأسد³

14- وكان لأبي دلامة جارية اسمها ((ربابة))، لا تجيد العربية، فقالت له يوما لا بد أن تقول في
شعرا، فقال:

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت
لها سبع دجاجات وديك حسن الصوت

¹ المصدر السابق ص 245.

² زهرة الآداب للحصري 1: 487.

³ البلاط الأدبي للمعز الفاطمي ص 245.

فصار الصبيان في بغداد يرددونها، ضمن أهانهم ودعاباتهم.

ومثلها الأبيات التي مرت بنا قيلت في بشار بن برد، التي قالها فيه الأحموس، يرددها صبيان البصرة، كما هي عادة الصغار، في كل مكان وزمان، يلقنهم الكبار أبياتاً خفيفة الوزن، وسهلة الحفظ، ليتغنوا بها، وهي ذات مغزى وترمي إلى المرح والفكاهة، في ظاهرها، وباطنها الإساءة إلى المقولة فيه.

وبعد:

فإني أستغفر الله لي وللإخوة القراء، من زلة القلم، وفتلت اللسان، ومن القول بغير حق، وأن يعيننا الله على إجراء دراسة منصفة في هذا الأدب وخاصة الشعر: أسبابه ومسبباته، ومراميه البعيدة، والقريبة حتى نخرج برأي سديد.. في الغرض الذي سلك به مريدوه طرقاً شتى، كما استغله ذوو الأهداف الخاصة، لخدمة مآربهم، ولا نميل مع المتبدلين منهم ولا المسفين؛ لأن أدبنا يجب أن يتمشى بما يأمر به ديننا، ولا يخرج عن منهج نبينا عليه الصلاة والسلام، كما تسرب من أمور:

وأهمها محاولة طعن الإسلام ورجاله بأيدي أبنائه، لينالوا منه قدحاً، ومن رجاله جرحاً، وتعديلاً، سالكين طرقاً من الاستطالة أو الإنقاص، من ذوي المكانة بدافع الحسد والغيرة، أو إدخال كلمات وعادات على المجتمع الإسلامي، لتكون مألوفة في حياة الناس، بدافع المفاكهة والإضحاك، والمجارة، وهي مما نهى عنه الإسلام، وشدد في التنفير منه.

وعلى العموم فهذا الغرض الشعري، الذي مر بنا نماذج منه، من أهم وأوسع الأبواب، التي دخل منها المستشرقون، وتبعهم تأييداً من في قلوبهم مرض ضد الإسلام وأهله..

وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.